قصص وعبر

من قصص

القرآن الكريم

ح محمد أحمد علي آل مريع عسيري ، ١٤٤٠ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
عسيري، محمد أحمد علي
قصص وعبر من قصص القرآن الكريم./ محمد أحمد علي عسيري — أبها، ١٤٤٠هـ
٢٨٨ ص ؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٠ ـ ١٢٤٥ ـ ٠٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ـ قصص القرآن أ ـ العنوان
ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٤٠/١٠٤٢٢

رقم الإيداع: ١٤٤٠/١٠٤٢٢
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٣-١٢٤٥-٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
(١٤٤١هـ - ٢٠١٩م)

مدار الوطن للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض المقر الرئيسي
مخرج ١٥ مقابل جامع الراجحي ت: ١١٤٧٩٢٠٤٢ -
٠١١٢٣١٣٠١٨ جوال: ٠٥٠٣٢٨٢٣١٨ ف: ٠١١٤٤٥٤١٢٤
مندوبي التوزيع
الرياض: ٠٥٠٣٢٦٩٣١٦ الغربية: ٠٥٠٤١٤٣١٩٨
الشرقية الشمالية: ٠٥٠٣١٩٣٢٦٨ التوزيع الخيري
الجنوبية: ٠٥٠٤١٤٣١٩٨ مسؤول الجهات الحكومية:
٠٥٠٠٩٩٦٩٨٧
الموقع الإلكتروني www.madaralwatan.com.sa
البريد الإلكتروني pop@madaralwatan.com.sa
madaralwatan@hotmail.com
madaralwatan2020@gmail.com

قصص وعبر

من قصص

القرآن الكريم

محمد أحمد علي آل مريع عسيري

مدار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

n

الحمد لله الـذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وأصلي وأسلم على أشرف خلق الله، سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، **أما بعد:**

فإنَّ الله تعالى لا يغفر لمن مات على الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨]، لأنه لا حجَّة لمخلوق أمام الله إذا لقيه وهو يشرك به، فقد قامت الحجَّة على جميع الناس بأنَّ الله هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ لأنَّ الله خلق جميع الخلق مفطورين على التوحيد، قال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

وأشهـد بني آدم على أنفسهم أنه هو الله قـال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدۡنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢].

فإذا حاد الناس عن الطريق وأشركوا بالله، وعبدوا غير الله، فإنَّ الله لا يعاجلهم بالعذاب بل يُرسل إليهم الرُّسُل قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:١٥]، فيأتيهم الرُّسُل مبشِّرين ومنذرين، فمن أشرك

بالله بعد ذلك فقد استحق العذاب من الله قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥].

وسنَّة الله في الأمم أنَّه لا يترك أمَّة دون أنْ يرسل إليهم رسولًا قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر:٢٤]، حتى ختم الله الرُّسل بأفضل الخلق وهو نبينا محمد بن عبد الله ﷺ قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤٠]، فليس بعده نبيٌّ ولا رسول، وجعل الله دينه خاتم الأديان وباقٍ إلى قيام الساعة، وذلك لأنَّ بعثة رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ علامة على قيام الساعة، فقد جاء عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين**». قال: وضم السبابة والوسطى [رواه مسلم]، فلذلك كان دينه باقٍ إلى قيام الساعة، ولهذا تولَّى الله حفظ هذا الدِّين قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، ومن حفظ الله لهذا الدِّين أنَّه يبعث كل مئة عام من يجدد للأمَّة أمر دينها، قال ﷺ: «**إِنَّ الله يَبْعَثُ لهذه الأُمَّة على رأس كل مئة سنة منْ يُجَدِّدُ لها دينها**» [رواه أبو داود]، فلهذا كان رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ رسولًا إلى الناس كافة قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ:٢٨].

وصار جميع الناس مأمورين من الله تعالى باتِّباع هذا الدِّين القويم الذي هو خاتم الأديان السماوية، ولذلك وَجَبَ على أهل العلم أنْ يدعوا إلى الله على علم وبصيرة فقال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥]، فإذا قاموا بواجب الدعوة وإبلاغ دين الله للناس، فيكونون قد قاموا بما أمرهم الله عَزَّوَجَلَّ به، فمهمَّتهم كمهمة الرُّسُل وهي البلاغ، وليست مهمتهم إدخال الناس في الدين بالقوَّة والإجبار قال تعالى: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ [الشورى:٤٨]، وقال تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ [المائدة:٩٩]، وبعد ذلك فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلَّ فعليها، والله هو الذي يتولى محاسبة العباد قال تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾ [الإسراء:١٥].

وقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم على رسوله محمد بن عبد الله ﷺ، وجعل الله فيه الكثير من المواعظ للناس قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس:٥٧]، فتارةً يعظ الله تعالى الناس في كتابه العزيز بالمواعظ الشرعية، وذلك بذكر حال المؤمنين وحال الكافرين ومآل كل واحدٍ من الفريقين ومثال ذلك قوله تعالى:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر:٧١-٧٤].

فبهذا بيَّن الله للناس هذين الطريقين اللَّذَيْن لا ثالث لهما، ثم كرّم الله الإنسان وأعطاه العقل وأرسل إليه الرسل وأنزل عليه الكتب قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، فيختار الإنسان أيُّ الطريقين يسلك، ثم يوم القيامة يحاسب الله الناس جميعًا قال تعالى عن يوم القيامة: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر:١٦-١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه:١٥].

وتارةً يعظ الله الناس في القرآن بضرب الأمثال، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، وفائدة ضرب الأمثال في القرآن هو تقريب المعنى

للأذهان، وأخذ العظة والعبرة.

وتارةً يعظ الله الناس في القرآن بذكر قَصَص الأنبياء مع أقوامهم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١]، وقصص الأنبياء مع أقوامهم تبدأ بانحراف الناس عن الصراط المستقيم، فيشركون بالله ويكفرون به، فيُرسل الله إليهم الرسول، فيدعوهم إلى الله ويخبرهم أنَّه لا يريد منهم أجرًا مقابل دعوته لهم، فيكذِّبونه ويزعمون بأنَّه ليس رسولا من عند الله لأنه بشرٌ مثلهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٤]، فيردَّ الله عليهم بأنَّ رسُلَه للبشر هم بشر مثلهم، لأنَّ ذلك أدْعى إلى تصديق الناس لهم والاقتداء بهم، لأنَّ الله لو جعل الرُّسل إلى البشر من الملائكة لادَّعى الناس بأنَّهم لا يمكنهم الاقتداء بالملائكة، لأنَّ الملائكة مجبولين على عبادة الله ولا يعصونه أبدًا، قال الله عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، والبشر ليسوا كذلك، فكان من حكمة الله أنْ يرسل إلى البشر رسلًا منهم لتقوم الحجَّة عليهم، وأنَّ أوامر الله يقدر على أدائها البشر؛ فلذلك قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٥].

فالرسل بشر يصيبهم ما يصيب البشر، ويحتاجون إلى ما يحتاجه البشر قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ

وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان:٢٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد:٣٨]، وبعد ذلك يطلب الأقوام من رسلهم آية تدلُّ على صدقهم، فيعطيهم الله الآية التي طلبوها، فيكفرون فيأخذهم الله بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون، فإذا كفروا أعطاهم الله من كل شيء حتى إذا فرحوا بما عندهم جاءهم العذاب من الله قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٤٢-٤٥].

والذين يؤمنون بالرُّسل عادةً هم الضعفاء والفقراء من الناس، وهذا يدل على أنَّ الرُّسل مهمَّتهم هي البلاغ، لأنَّه لو كانت مهمَّتهم إدخال الناس في الدين بالقوَّة لكان من مصلحة الدعوة أن يبدأوا بالأشراف والقادة من الناس، لأنهم لو آمنوا لتبعهم الناس مباشرة، ولكن مهمَّة الرسل هي البلاغ، فلذلك كان يتبعهم الفقراء والضعفاء من الناس.

وحريٌّ بنا أن نقرأ القصص القرآني ونفهمه ونأخذ العِبَر منه، فإنَّه من لم يعتبر بغيره صار عبرةً لغيره، فإنَّ هذا الكون يسير وفق سننٍ إلهيَّة لا تتغير

ولا تتبدَّل وتجري على جميع الناس، فيجب على الإنسان أنْ يعتبر بهذه القصص وأنْ يتجنَّب مساخط الله، لكي يسلم من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة.

وقبل أن أبدأ بسرد قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مع أقوامهم وذكر بعض العظات والعِبَر منها يجب أنْ نعلم ستة أمور:

١- أنَّ النبوَّة والرِّسالة ليست مَرْتَبةً يَصِل إليها الإنسان بعد عملٍ معيَّن، بل هي اصطفاء واختيار من الله تعالى، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٧٥]، وقد اختار الله للنبوَّة والرِّسالة صفوة الخلق وأفضلهم، ولذلك قال تعالى في مَعرِضِ ذكر الأنبياء: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٧].

٢- أنَّ الأنبياء يتفاضلون فيما بينهم قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة:٢٥٣]، فنبينا محمد بن عبد الله ﷺ سيد ولد آدم وله الشفاعة العظمى والمقام المحمود قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافعٍ، وأول مُشَفَّعٍ**» [رواه مسلم]، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ اتخذه الله خليلًا قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]، وموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كلَّمه الله قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جعل الله خلقه معجزة وآية فقد خلقه من غير أب وأعطاه المعجزات كإحياء الموتى وشفاء الأكمه والأبرص بإذن الله قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة:٢٥٣].

ومع هذا فنحن نؤمن بهم جميعًا وأنَّهم رُسُلٌ من عند الله، وأنَّهم بلَّغوا الرسالة وأدَّوا الأمانة، ونؤمن ونعتقد بأنَّ رسالة نبينا محمد بن عبد الله ﷺ ناسخةٌ لجميع الشَّرائع السابقة، وأنَّ الله تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء أنَّه لو جاءهم رسول من عنده مصدِّقٌ لما معهم أنْ يؤمنوا به وينصرونه، فلو أدرك الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ نبينا محمد ﷺ لآمنوا به واتبعوه، فلذلك بعد بعثته ﷺ فإنَّ الله لا يقبل من أحدٍ إلَّا دين الإسلام قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨١-٨٥].

٣- أنَّ الله تعالى ختم النبوة والرِّسالة بنبينا محمد بن عبد الله ﷺ، فليس بعده نبيٌّ ولا رسول قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠].

٤- أنَّ الله تعالى يؤيد رسله بالمعجزات التي بمثلها يؤمن البشر، والمعجزة هي أمرٌ خارقٌ للعادة، والأمور الخارقة للعادة على ثلاثة أنواع:

إما أنْ تكون مُعجزة يؤيِّد الله بها رسله وأنبياءه، لقوله ﷺ: «**ما من الأنبياء من نبيٍّ إلَّا قد أُعْطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنَّما كان الذي أُوتِيت وحيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ، فأَرْجُو أَنْ أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**» [رواه البخاري]، وهذه المعجزات حقيقية من الله تعالى ولا تكون إلَّا للأنبياء والرُّسل كعصى موسى التي انقلبت حيَّة حقيقية، وناقة صالح، والنار التي لم تحرق إبراهيم -عليهم جميعًا السلام-، ومنها المعجزات التي كانت لنبينا محمد ﷺ كنبع الماء من بين أصابعه وانشقاق القمر والمعجزة العُظمى وهي القرآن الكريم.

وأمَّا النوع الثاني من الأمور الخارق للعادة فهي كرامات الأولياء، وهذه يُعطيها الله لأوليائه الصالحين، وأولياء الله الصالحون صفتهم كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣]، فالأولياء صفتهم كما جاء في هذه الآية الكريمة أنَّهم جمعوا بين الإيمان بالله والتقوى، فأمَّا الإيمان فمن لوازمه العمل الصالح، وأمَّا التقوى فهو الخوف من الله الذي يدفعهم إلى البعد عن معصية الله تعالى، وليس شرطًا أنْ يكون هؤلاء الأولياء معروفين بين الناس، وليس شرطًا أنْ تكون كرامتهم معروفة معلومة عند الناس، وهذه المرتبة هي مرتبة عالية يصل إليها العبد بإخلاصه العبادة لله، ومن أمثلة كرامات الأولياء ما حدث لأصحاب الكهف وحفظ الله لهم، فقصتهم مثال لما يُكرم الله به أولياءه الصالحين.

وأمَّا النوع الثالث من الأمور الخارقة للعادة هي السحر، ولا يُمكن التوصُّل إليه إلَّا عن طريق الكفر بالله تعالى والتقرُّب من الشياطين، والسحر ليس له حقيقة، وإنَّما هو مُجرَّد تخييل، ودلَّ على ذلك أنَّه عندما اجتمع سحرة فرعون للقاء موسى وألقوا حبالهم وعصيَّهم فتخيَّل الناس أنَّها تسعى، ولذلك قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦]، فلذلك لا يجوز تعلُّم السحر ولا تعليمه قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢]، ولا يجوز التعامل بالسحر ولا الذهاب للسَّحَرَة ولا يجوز تصديقهم فيما يقولون لقوله ﷺ: «**من أتى عرَّافا فسأله عن شيء فصدَّقه، لم تُقبل له صلاة أربعين يوما**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**من أتى كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد**» [رواه أبو داود]، وذلك أنَّ الساحر كفر بالله وادّعى مشاركة الله فيما اختص الله بعلمه وهو علم الغيب والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩].

وبعد ختم النبوة والرسالة بنبينا محمد بن عبد الله ﷺ فلم يبق هناك من الأمور الخارقة للعادة معجزات، فإذا حدث أمرٌ خارقٌ للعادة فهو إمَّا أنْ يكون كرامةً لوليٍّ من أولياء الله، أو تكون سحرًا.

٥- أنَّ جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أصل رسالتهم واحدة، وأصل دينهم واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ كل ما يعبد من دون الله قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال ﷺ: «**الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد**» [رواه البخاري]، أي أنَّ أصل دينهم واحد وهو إفراد الله بالعبادة، وإنْ اختلفت شرائعهم.

٦- أنَّ جميع الرُّسُل صبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى جاءهم النصر من الله قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤]. فمن سار على نهج الأنبياء وأصابه الأذى، فالواجب عليه أنْ يصبر؛ لأنَّ الله وعد بنصر رُسُلِه والمؤمنين قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه:

محمد بن أحمد بن علي آل مريع عسيري

يوم السبت الموافق ١٤٤٠/٨/٢٢هـ

بداية الخلق

n

قبل أنْ أتكلم عن بداية الخلق يجب أن نعلم جميعًا أنَّه لا يجوز لأحدٍ أن يسأل فيقول: مَنْ خلق الله؟ وقد أخبر ﷺ أنَّ هذا سيحدث فقد جاء عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خلق كل شيء، فمن خلق الله؟**» [رواه مسلم]، وقد أخبر ﷺ أنَّ هذا السؤال من عمل الشيطان، وأخبرنا كيف نتعامل معه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته**» [رواه البخاري].

فيجب على الإنسان إذا ألقى الشيطان في نفسه هذا الوسواس فليستعذ بالله وينتهي عنه، فالاستعاذة بالله تطرد الشيطان قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٢٠٠]، ولذلك فإنَّه لا يتَّبع وساوس الشيطان ويسأل عن هذا السؤال إلَّا من استحوذ عليه الشيطان، ويكون هدفه من هذا السؤال هو المجادلة وإلقاء الشُّبه في القلوب، لأنَّ هذا السؤال لن ينتهي، فلو قال شخص: مَنْ خلق الله؟ ثم يقول: مَنْ خلق خالق الله؟ ثم يقول: من خلق خالق خالق الله؟ وهكذا إلى مالا نهاية، فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ

أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١]، ثم أخبر الله أنَّه لا يُصغِي للشياطين إلَّا مَنْ كان لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١١٢-١١٣].

ويجب أنْ نعلم ونؤمن ونعتقد بأنَّ الله تعالى هو الأوَّل فليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، والظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس تحته شيء، وأنَّه قد أحاط بكل شيءٍ علمًا قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣]، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**» [رواه مسلم].

ويجب أنْ نؤمن ونعتقد أنَّ الله تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العُلى قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]، فيجب أن نؤمن بأسماء الله كما جاءت، ولا نحرِّفها عن معانيها، قال ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة**» [رواه البخاري]، ويجب أن نؤمن ونعتقد بأنَّ لله الصفات العلى، التي لا يشبهه فيها أحد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وقال تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، أي أنَّه لا يوجد له

سميٌّ ولا شبيه في أفعاله أو صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص]، أي أنَّه ليس لله ندٌّ ولا شبيهٌ ولا نظير في ذاته وأسمائه وصفاته.

ويجب أنْ نؤمن بأسماء الله وصفاته كما جاءت في كتابه وسنة رسوله ﷺ، ولا نحرِّف أسماء الله عن معانيها ولا نشبِّه صفاته بأحد، وهذا من الإيمان بالغيب، وقد بيَّن الله أنَّ المؤمنين بالغيب هم المهتدون والمفلحون قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:١-٥].

وأمَّا بداية الخلق، فإنَّ أوَّل ما خلق الله الماء ثم العرش، وكان قبل خلق السموات والأرض، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، وكان خلق الماء قبل العرش؛ لأنَّ العرش كان على الماء.

عن عمران بن حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ ناسًا من أهل اليمن سألوا النبي ﷺ عن أول هذا الأمر ما كان؟ فقال: «**كان الله ولم يكن شيءٌ قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء**» [رواه البخاري].

ثم خلق الله الملائكة؛ لأنَّ حملة العرش منهم قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧]، وأخبر تعالى عن حملة العرش أنَّهم يسبِّحون

بحمد ربِّهم ويستغفرون للمؤمنين قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر:٧].

ومن صفات حملة العرش ما جاء عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**أُذِن لي أن أُحدِّث عن ملَك من ملائكة الله من حملة العرش، إنَّ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام**» [رواه أبو داود]، والعرش هو سقف الجنَّة قال ﷺ: «**فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة**» [رواه البخاري]، والله تعالى مستوٍ على عرشه قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥].

ثم خلق الله الجنة والنار، لأنَّه جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ قال: «**لمَّا خلق الله الجنة والنار، أرسل جبريل إلى الجنة، فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، قال: فرجع إليه قال: فوعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بها فَحُفَّت بالمكاره، فقال: ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فرجع إليها فإذا هي قد حُفَّت بالمكاره، فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خِفْتُ أن لا يدخلها أحد، قال: اذهب إلى النار، فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضا، فرجع إليه، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فَحُفَّت بالشهوات، فقال: ارجع إليها، فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها**» [رواه الترمذي].

وقد خلق الله الجنة وجعلها دارًا للمؤمنين في الحياة الآخرة قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وعرضها كما جاء في الآية الكريمة أنَّه كعرض السموات والأرض، وقد جعلها الله درجات قال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء:٢١]،

وجاء عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدُّرِّي الغابر في الأُفُق، من المشرق أو المغرب، لتَفَاضُلِ ما بينهم**» قالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبْلُغُهَا غيرهم، قال: «**بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وَصَدَّقُوا المرسلين**» [رواه البخاري]، ولذلك قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الزمر:٢٠]، وأعلى منازل الجنة هي الفردوس قال ﷺ: «**فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة**» [رواه البخاري].

وأدنى منازل الجنة كما جاء عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سأل موسى ربه ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أُدْخِل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادْخُلْ الجنة. فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذَاتِهِمْ؟! فَيُقَال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْكِ مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك ومثله**

ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك، فيقول: رضيت رب» [رواه مسلم].

وأمَّا النار فقد جعلها الله تعالى دارًا للكافرين قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤]، وهي دركات وذلك لأنَّه أخبر ﷺ **«أنَّ أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة، لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه»** [رواه البخاري].

والجنة والنار لا تفنيان ولا تبيدان أبدًا، قال تعالى عن نار جهنم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٣٩]، وقال تعالى عن الجنة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٨٢]، وجاء عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: **«يُجَاء بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يُقَال: يا أهل الجنة، فيطلعون مشفقين، ويُقال: يا أهل النار، فيطلعون فرحين، فقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، فيذبح بين الجنة والنار، ويُقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت فيها، ويا أهل النار خلود ولا موت فيها»** [رواه البخاري].

ثم خلق الله القلم، فعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أوَّلَ ما خلق اللهُ القلم، فقال له: اكتبْ، قال: ربِّ، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»** [رواه الترمذي]، وجاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سمعت رسول الله ﷺ،

يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**»، قال: «**وعرشه على الماء**» [رواه مسلم].

ثم خلق الله السموات والأرض بعد الخلق القلم بخمسين ألف سنة كما جاء في الحديث السابق، وقد خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، فخلق الأرض أوَّلًا في أربعة أيام، وجعل فيها الجبال لكي تكون لها رواسي، وجعل فيها القوت للناس وسخر ما فيها للبشر، ثم خلق السموات في يومين قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت:٩-١٢].

وقد جعل الله النجوم في السماء لثلاث فوائد، وهي أنَّها زينةً للسماء وكذلك رجوما للشياطين الذين يسترقون السمع قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:٦-١٠]، والفائدة الثالثة من خلق النجوم هي أنَّها علامات يهتدي بها المُسافر في طريقه قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦].

ثم خلق الله الجن قبل خلق الإنس، لأنَّ الله تعالى لمَّا خلق آدم كان إبليس في الجنة مع الملائكة، وقد أخبر تعالى أنَّه خلق الجن قبل الإنس قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٦-٢٧]، ثم خلق الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقد خلق الله الملائكة من النور، وخلق الجن من النار، وخلق الإنسان من الطين، فقد جاء عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خُلِقَت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصِفَ لكم**» [رواه مسلم].

فأمَّا الملائكة فإنَّ خلقهم عظيم قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر:١]، وهم ليسوا إناثًا ولا أجناسًا فقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦].

ومن عِظَم خلق الملائكة ما جاء عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أنَّ رسول الله ﷺ رأى جبريل في صورته وله ستمئة جَناح، كل جَناح منها قد سد الأفق**» [رواه أحمد]، وما جاء أنَّ رسول الله ﷺ قال في وصف جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**رأيته منهبطًا من السماء سادًّا عِظَمُ خَلْقِه ما بين السماء والأرض**» [رواه مسلم]، وما جاء عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**أُذِن لي أن أحدِّث**

عن ملَك من ملائكة الله من حملة العرش، إنَّ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمئة عام» [رواه أبو داود]؟

وقد أعطاهم الله القدرة على التشكُّل في هيئة بشر كما جاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مريم في هيئة بشر قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٦-١٧]، وكان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتي رسول الله ﷺ في صورة رجل من الصحابة يسمى: (دحية الكلبي) [رواه أحمد]، وقد تكون كأمثال السُّرُج، فعن أبي سعيد الخدري، أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مربده إذ جالت فرسه فقرأ، ثم جالت أخرى فقرأ، ثم جالت أيضا، قال أسيد: فخشيت أن تطأ يحيى -وهو ابنه-، فقمت إليها، فإذا مثل الظلة فوق رأسي، فيها أمثال السُّرُج عَرَجَت في الجو حتى ما أراها، فلمَّا أخبر رسول الله ﷺ قال: **«تلك الملائكة كانت تستمع لك، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم»** [رواه مسلم]، وذلك لأنَّ البشر لا يستطيعون رؤية الملائكة.

والملائكة مجبولون ومفطورون على طاعة الله تعالى وعدم عصيانه قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٤٩-٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٧].

وللملائكة أعمال يقومون بها: فمنهم الموكل بالوحي وهو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومنهم خزنة جهنم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، ومنهم حفظه يحفظون الإنسان بإذن الله قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]، ومنهم من يكتب أعمال الإنسان، ومنهم من ينفخ في الصور، ومنهم حملة العرش، وغير ذلك من الأعمال التي أوكلهم الله بها.

والملائكة لا يفترون عن عبادة الله وتسبيحه قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠]، ومن كثرة الملائكة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ قال ﷺ في حديث الإسراء بعد أنْ تجاوز السماء السابعة: «**ثم رُفِعَ بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا، لا يعودون إليه**» [رواه البخاري].

وأمَّا الجن فقد خلقهم الله من النار قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ [الرحمن:١٥]، ولا يمكن للبشر رؤية الجن قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾ [الأعراف:٢٧]، وقال ﷺ: «**إن عفريتا من الجن تفلت عليّ البارحة ليقطع عليَّ صلاتي فأمكنني الله منه، فأخذته فأردت أن أربطه إلى ساريـة من سواري المسجـد حتى تنظروا إليه**

كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ فرددته خاسئا» [رواه البخاري]، وعن أبي الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ فصلى فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك، ألعنك بلعنة الله» ثلاثا. وبسط يده كأنه يتناول شيئا، فلما فرغ من الصلاة قلنا يا رسول الله: سمعناك تقول في الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك. قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات»، ثم قلت: «ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان، لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدنية» [رواه مسلم].

وإبليس له ذرية كما أنَّ لآدم ذرِّية قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۚ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف:٥٠]، والجن مكلَّفون كالإنس ومأمورون بالإيمان بالله تعالى قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فكان من الجن من آمن برسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٣١ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ

﴿أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجن:١-٢].

فمن آمن منهم بالله فهو في الجنة، ومن كفر فهو في النار قال تعالى حكايةً عن الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدٗا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن:١٤-١٥].

وأمَّا البشر فقد خلقهم الله من الطين قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ [الصافات:١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران:٥٩]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ﴾ [الأنعام:٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٖ مِّنْ حَمَإٖ مَّسْنُونٖ﴾ [الحجر:٢٦]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٖ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤].

وللجمع بين الآيات فإن الله خلق آدم من تراب ثم جعل معه الماء فصار طينًا، ثم عندما جفَّ صار كالفخَّار، ثم عندما خلق الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خلق من ضلعه حواء، ثم أصبح نسل آدم يتكاثرون عن طريق الماء الذي يخرج من الرجل والمرأة قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٥-٧].

وقد خلق الله آدم من قبضة من تراب من جميع الأرض، فلذلك جاء ذرية آدم مثل الأرض، منهم السهل ومنهم الصعب ومنهم الخبيث ومنهم الطيب، فقد جاء عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله

ﷺ يقول: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب**» [رواه الترمذي].

والبشر مكلفون ومأمورون بالإيمان بالله وإخلاص العبادة له قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فمن آمن فهو في الجنة، ومن كفر فهو في النار قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر:٧١-٧٤].

ومع كل إنسان قرينٌ من الجن وقرين من الملائكة، فقد جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة**»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي: إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير**» [رواه مسلم]، فالقرين من الملائكة يأمر الإنسان بالخير، والقرين من الجن يأمر الإنسان بالشر، ولذلك إذا كفر الإنسان بالله وأشرك به فإنَّه قد أطاع قرينه من الجن

قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣].

n

قصة خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

n

أخبر الله تعالى الملائكة أنه سيستخلف في الأرض خليفة من البشر، فظنَّ الملائكة أنَّ هذا الذي سيستخلفه الله في الأرض سيعصي الله ويفسد في الأرض ويقتل بغير وجه الحق، فبيَّن الله للملائكة أنه يعلم مالا يعلمون، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠]، ثم لَمَّا خلق الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بيده، وكان خلقه من طين كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص:٧١]، قال ﷺ: «إن اللهَ خلَقَ آدمَ مِن قبضةٍ قَبَضَها مِن جميعِ الأرضِ، فجاءَ بنو آدمَ على قَدْرِ الأرضِ جاء منهم الأحمرُ، والأبيضُ، والأسودُ، وبينَ ذلك، والسَّهْلُ، والحَزْنُ، والخبيثُ، والطيِّبُ» [رواه أبو داود]، وقال ﷺ: «لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقًا لا يتمالك» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «لمَّا خلقَ الله آدمَ ونفخَ فيهِ الرُّوحَ عَطسَ فقالَ: الحمدُ لله، فحمِدَ الله بإذنِهِ، فقالَ لَهُ ربُّهُ: يرحَمُكَ الله يا آدمُ، اذهب إلى أولئِكَ الملائِكَةِ، إلى ملإٍ منهُم جلوسٍ فقل: السَّلامُ عليكُم. قالوا: وعليكَ السَّلامُ ورحمةُ الله، ثمَّ رجعَ إلى ربِّهِ، قالَ: إنَّ هذِهِ تحيَّتُكَ وتحيَّةُ بَنيكَ بينَهُم، فقالَ الله لَهُ ويداهُ مَقبوضتانِ: اختَر أيَّهما شئتَ، قالَ: اخترتُ يمينَ ربِّي وَكِلتا يدي ربِّي يمينٌ مبارَكَةٌ، ثمَّ بسطَها

فإذا فيها آدمُ وذرِّيَّتُهُ، فقالَ: أي ربِّ، ما هؤلاءِ؟ فقالَ: هؤلاءِ ذرِّيَّتُكَ، فإذا كلُّ إنسانٍ مَكْتوبٌ عُمرُهُ بينَ عينيهِ، فإذا فيهم رجلٌ أضوَؤُهُم أو من أضوئِهِم قالَ: يا ربِّ مَن هذا؟ قالَ: هذا ابنُكَ داودُ قد كتبتُ لَهُ عُمُرَ أربعينَ سنةً. قالَ: يا ربِّ زِدهُ في عمرِهِ. قالَ: ذاكَ الَّذي كتبَ لَهُ. قالَ: أي ربِّ، فإنِّي قَد جعَلتُ لَهُ من عُمُري ستِّينَ سنةً. قالَ: أنتَ وذاكَ. قالَ: ثمَّ أُسكِنَ الجنَّةَ ما شاءَ اللهُ، ثمَّ أُهبِطَ منها، فَكانَ آدمُ يعدُّ لنَفسِهِ، قالَ: فأتاهُ ملَكُ الموتِ، فقالَ لَهُ آدمُ: قد عجَّلتَ، قَد كتبَ لي ألفُ سنةٍ. قالَ: بلَى ولَكِنَّكَ جعَلتَ لابنِكِ داودَ ستِّينَ سَنةً، فجَحدَ فجَحدَتْ ذرِّيَّتُهُ، ونسيَ فنَسيَتْ ذرِّيَّتُهُ. قالَ: فمِن يومئذٍ أُمِرَ بالكتابِ والشُّهودِ» [رواه الترمذي]، وعندما خلق الله آدم كان طوله ستون ذراعًا كما جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلْ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الآن» [رواه البخاري].

وقد علَّم آدم أسماء كل شيء، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:٣١]، ثم سأل الله الملائكة عن هذه الأسماء فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:٣١]. فنزَّه الملائكةُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقالوا: ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢]. ثم أمر الله آدم أن يُنبِئَهُم بهذه الأسماء، فقال: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ [البقرة:٣٣]. فتبيَّن فضل

آدم بما علَّمه الله، فأمر الله تعالى الملائكة أن يسجدوا لآدم سجود تكريم، فسجد جميع الملائكة إلا إبليس لم يسجد لآدم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [ص:٧١-٧٤]، فقال تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص:٧٥]، فقال إبليس مبيِّنًا عداوته لآدم وذرِّيَّته، ومبيِّنًا تكبُّره: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص:٧٦]، فأخرجه الله من الجنَّة وطرده من رحمته، قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص:٧٧-٧٨]، فطلب إبليس أن يمهله الله إلى يوم القيامة فقال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص:٧٩]. فأعطاه الله طلبه، فقال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [ص:٨٠-٨١]. وحينها عندما أيقن إبليس أن الله سيمهله إلى يوم القيامة أقسم على إغواء بني آدم، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢-٨٣]. فقال تعالى متوعِّدًا إبليس ومن يتبعه: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٤-٨٥].

العِبْرة:

١- أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له الحِكْمَة المُطلقة في جميع أفعاله، فالملائكة

ظنوا أن خلق آدم وجعله في الأرض خليفة سيكون فيه الفساد، فبيَّن الله للملائكة أنه يعلم مالا يعلمون، فإن الله لا يخلق شيئًا إلا لحكمة، وليس عبثًا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦]، فتجلَّت حكمة الله في خلق آدم، فلمَّا خلق الله آدم تبيَّنت عداوة إبليس وتكبُّره، وظهرت حكمة الله في خلق البشر وابتلائهم في الحياة الدنيا، وظهر من عباد الله المؤمن والكافر، وتبيَّنت حكمة الله في إرسال الرسل وإنزال الكتب، وخلق الجنة للمتقين، والنار للكافرين، وغير ذلك من الحِكم الكثيرة.

٢- علم الله تعالى الواسع، فإن الله علم آدم أسماء كل شيء، ولما سأل الملائكة عن ذلك، فبيَّنوا علم الله الواسع وأنهم لا يعلمون إلا ما علَّمهم الله، فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢].

٣- قدرة الله على كل شيء، فقد خلق آدم من غير أم ولا أب، بل خلقه بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالله لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

٤- أنَّ إبليس عدو لآدم وذرِّيَّته، ولذلك رفض السجود لآدم، وأقسم على إغواء ذرِّيَّته، فيجب الحذر من إبليس وعدم طاعته، فقد حذّرنا الله منه فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧]، وأخبرنا تعالى بعداوة الشيطان، وأنَّه يريد أن نكون معه في نار جهنم فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

٥- الطريق الوحيد للتخلُّص من إغواء الشيطان هو إخلاص العبادة لله تعالى، فإن من يجعل عمله خالصًا لله لا يريد به رياءً ولا سمعة، فإنه لا سبيل لإبليس عليه، وقد اعترف إبليس بذلك فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢-٨٣].

٦- قال ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ -أَحْسَبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ- فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ» [رواه مسلم]، فلذلك فطر الله جميع الخلق على التوحيد لئلَّا تكون هناك حجَّة لمن يشرك بالله قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

٧- لا يجوز ضرب أي أحد على وجهه لقوله ﷺ: «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبْ الْوَجْهَ؛ فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» [رواه مسلم]، والمعنى أنَّ الله تعالى سميع بصير يسمع ويرى ويتكلم كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وخلق آدم له سمع وبصر ويتكلم، ولكن سمع آدم وبصره وكلامه ليس كسمع الله وبصره وكلامه، فالله تعالى ليس كمثله شيء قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ولكن المراد أنَّ الله تعالى له وجه يليق بجلاله وعظيم سلطانه، وآدم له وجه ولكنَّ وجهه لا يشبه وجه الله تعالى.

٨- أنَّ الامتثال لأمر الله يورث الإنسان السعادة والراحة والطمأنينة، ومعصية الله تورث الشقاء والندامة قال ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله أُمِرَ ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأُمِرْتُ بالسجود فعصيت، فلي النار**» [رواه مسلم].

n

قصة آدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عندما أكلا من الشجرة

n

لقد خلق الله تعالى حواء من ضلع آدم ليسكن إليها قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ [الروم:٢١]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء:١]، وقال ﷺ: «**استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء**» [رواه البخاري]، وأَسْكَن الله آدم وزوجته حواء الجنة، وقال لهما: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة:٣٥]. وحذَّرهما من الشيطان وأخبره أنه عدوٌ لهما، فقال: ﴿إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه:١١٧]. وأباح الله لهما كلَّ ما في الجنة إلا شجرة معيَّنة نهاهما الله عن الأكل منها فقال: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٣٥]. وقد أخبر الله آدم بالنعيم الذي في الجنة، فقال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه:١١٨-١١٩]. فوسوس إبليس لآدم وقال له: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه:١٢٠]. أي أنك لو أكلت من هذه الشجرة ستكون ملَكًا من الملائكة، وتُخلّد فلا تموت، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف:٢٠].

فأكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها، فكانت النتيجة كما قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١]، وقال الله لآدم وحواء بعد أن أكلا من الشجرة: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:٢٢]. فاستغفرا وقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]. فتاب آدم إلى الله بعد هذه المعصية، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧]، فتاب الله عليه وعلى حواء، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢].

ولكن الله أَهْبَطَ آدم وحواء من الجنة قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف:٢٤]، أي اهبطوا إلى الأرض تعيشون فيها ما قدَّر الله لكم وأنتم والشيطان بعضكم لبعض عدو، وأخبرهم الله أنه سيعيشون وذرِّيَّتهم على الأرض ويموتون عليها، ثم يبعثهم الله منها، قال تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:٢٥].

وأخبرهم أنَّه إذا جاءكم مني الهدى، فمن تبعه فإنه لا يضل ولا يشقى ولا يخاف ولا يحزن قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨].

العِبْرة:

١- شرع الله الزواج لِحِكَمٍ كثيرة فهو سكن للزوجين كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ [الروم:٢١]، وهو السبيل المشروع لتكاثر النَّسل قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء:١]، ولذلك خلق الله حواء من ضلع آدم.

٢- الشيطان عدوٌ للإنسان ولا يُمكن أن يأمره بخير، فقد أقسم إبليس لآدم وحواء أنه ناصحٌ لهما عندما أمرهما بأن يأكلا من الشجرة، قال تعالى: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف:٢١]، فكانت النتيجة أن وقع آدم وحواء في معصية الله، فلذلك يجب الحذر من الشيطان وعدم اتِّباع وساوسه.

٣- إذا وقع الإنسان في معصية فيجب عليه أن يُبادر بالتوبة، كما فعل آدم وحواء فقد بادروا إلى التوبة إلى الله تعالى عندما وقعا في المعصية، قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣]، فتاب الله عليهم قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

n

قصة ابنَيْ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ

n

كان لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنان، قرَّب كلٌّ واحدٍ منهما قربانًا لله تعالى، فتقبَّل الله من أحدهما لأنه كان هو الأتقى لله، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، فالـذي لم يتقبل الله منه توعَّـد أخيه بالقتل حسدًا منه، ولكن الأخ التَّقي قال: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٢٨-٢٩]. أي فترجع بإثمي وإثمك فتخسر دنياك وآخرتك.

ولكن الأخ الظالم لم يردعه وعظ أخيه له فقتله، قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٣٠]، وبعد قتله لأخيه لم يعرف كيف يفعل بجثته، فأرسل الله له غرابًا يحفر في الأرض؛ ليدفن غرابًا ميِّتًا فأصبح يلوم نفسه لمَّا رأى الغراب، وندم على ما كان منه من قتل أخيه قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٣١].

العِبْرة:

١- لا يتقبل الله من العبادة إلا ما كان خالصًا لوجهه، فقد تقبَّل الله من أحد أبناء آدم ولم يتقبل من الآخر، وقد ذكر السبب فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]. والتَّقي يكون عمله خالصًا لله تعالى.

٢- قال ابن آدم لأخيه الظالم: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٢٨-٢٩]. ولذلك لا يجوز أنْ يتقاتل المسلم مع أخيه المسلم لقوله ﷺ: «**إذا تواجه المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار**». قالوا: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**» [رواه مسلم].

وأيضًا لا يجوز قتل النفس بغير حق، فقد سمَّى القتل ظلمًا، ولما قتل ابن آدم أخيه قال الله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٣٠]، فكان خاسرًا لأنه أقْدَمَ على القتل بغير الحق، ولذلك جعل الله من قتل نفس فكأنما قتل الناس جميعا، ومن خاف الله فلم يقتل فكأنما أحيا الناس جميعا، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

٣- من سنَّ سنَّةً سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها، ولذلك كل من يُقْدِم على قتل نفس بغير حق يكون على ابن آدم القاتل وزرها، قال

ﷺ: «لا تُقْتَل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دَمِهَا؛ لأنه كان أول من سَنَّ القتل» [رواه البخاري].

n

قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ

n

أرسل الله عَزَّوَجَلَّ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه عندما عبدوا الأوثان والأصنام من دون الله، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ونبذ كل ما يُعبد من دون الله، فأنكر عليه قومه أنه يدعوهم إلى عبادة الله وهو بشر مثلهم، واحتجَّوا عليه بأنَّ من تبعه هم الضِّعاف والفقراء من الناس الذين ليس لهم رأي، وزعموا أنهم تبعوه تسرُّعًا منهم من دون تفكيرٍ في الأمر، ورأى أشراف قوم نوح أنهم أفضل من نوح ومن آمن معه، فكذَّبوا نوح في دعوته، فأخبرهم نوح أنه يدعوهم على بيِّنة من الله، وأنَّ الوحي يأتيه من عند الله، ولكن عميت أعين قومه عن الحق فلم يروه، فطلب الأشراف من قومه أن يقوم بطرد من آمن به من الفقراء والضعفاء لكي يؤمنوا به، ولكن نوح رفض ذلك الطلب لأنهم آمنوا بالله، فكيف يطردهم عن الإيمان بالله؟

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا نَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا

بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:٢٥-٣١].

وقد أخبرنا الله أنَّ نوح دعا قومه تسعمائة وخمسين سنة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤]، وقد قام نوح بما أمره الله من أمر الدَّعوة قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح:٥-٩].

فدعا قومه ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، فكان إذا أتى ليكلِّمهم في أمر الدعوة ووجوب إخلاص العبادة لله، فإنهم يضعون أصابعهم في آذانهم ويغطُّون رؤوسهم بثيابهم لئلَّا يسمعوه، وكان يقول لهم: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:١٠-٢٠]. ولكن قوم نوح كذَّبوه وعصوه واتبعوا قول أشرافهم بإصرارهم على عبادة الأصنام،

فاشتكى نوح إلى الله منهم فقال: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

ثم زاد إصرار قوم نوح على عبادة الأصنام، فتحدَّوا أن يأتيهم الله بالعذاب فقالوا: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود:٣٢]. فقال لهم نوح: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود:٣٣-٣٤].

فأوحى الله إلى نوح وقال له: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود:٣٦]. وأمر الله نوحا أن يصنع سفينة، فقال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٧]، فكان نوح يصنع السفينة في مكان ليس فيه بحر، فكان قومه إذا مرُّوا به سخروا منه لهذا الأمر قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود:٣٨-٣٩].

فلمَّا جاء الطُّوفان أمر الله نوحا أن يحمل معه في السفينة أهله ويحمل من كل المخلوقات زوجين ليبقى نسلها بعد الطوفان، ففعل نوح كما أمره الله قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [هود:٤٠-٤١].

فأمر الله السماء فأمطرت، وأمر الله الأرض فتفجَّرت منها العيون، قال تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر:١١-١٤]، وانطلقت السفينة في أمواج كالجبال من عِظَمِها ونادى نوح ابنه ليركب معهم قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود:٤٢]، ولكن ابنه لم يركب السفينة معهم وقال: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود:٤٣]. فقال له نوح: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هود:٤٣]. فكان ابن نوح من المُغرقين قال تعالى: ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود:٤٣].

فلمَّا أهلك الله قوم نـوح، أمر السماء فأمسكت الماء، وأمـر الأرض فابتلعت الماء الذي عليها، ورست السفينة على جبلٍ يُقال له (الجُودِيّ)، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٤٤]، فدعا نوح ربَّه فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هود:٤٥].

فأخبره الله أن ابنه عمل عملًا غير صالح لذلك استحق العذاب، ونهاه الله أن يسأل ما ليس له به علم، فالله هو أحكم الحاكمين، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦]، فتاب نوح إلى الله واستغفر فقال: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود:٤٧].

ثمَّ قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود:٤٨]، أي من خالف أمر الله بعد ذلك من الأمم فسيأخذهم الله بالعذاب الأليم.

العِبْرة:

١ - خطورة الجهل بالدين، فقد جاء عن ابن عباس أنَّه قال عن أصنام قوم نوح ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر: «أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمَّا هَلَكُوا، أَوْحى الشيطان إلى قَوْمِهِم: أَنْ انْصُبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أَنْصَابًا وسَمُّوها بِأَسمائهم ففَعلوا، فلم تُعْبَد حتى إذا هَلَكَ أولئك وتَنَسَّخَ العلم عُبِدَت» [رواه البخاري]، فوقع قوم نوح في الشرك؛ لأنهم وجدوا هذه الأصنام والتماثيل لهؤلاء الرجال الصالحين، ولكنهم لم يعلموا أنَّ أسلافهم لم يضعوا هذه التماثيل والأصنام للعبادة، فلمَّا رأوها ظنُّوا أنها تُعبد، ووسوس إليهم الشيطان بذلك فعبدوها، فهنا يتبيَّن خطورة الجهل وعدم العلم بالدين.

٢- من حِكْمَة الله أنَّه يُرسل للناس رُسُلًا من البشر، لكي يقتدي بهم الناس، ولذلك لَمَّا قال قوم نوح مُحتجِّين على نبيِّهم نوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود:٢٧]. ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [هود:٣١]. فلذلك اقتضت حِكْمة الله أن يرسل الرُّسل من البشر، وقد كانت هذه حُجَّة كل قوم يُنكرون دعوة نبيِّهم قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٤]، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٥].

٣- مُهمَّة الرُّسل إبلاغ دين الله للناس، وليست مُهمَّتهم إدخال الناس في دين الله، ولذلك كان يتبع نوح وكل الأنبياء الضعفاء والفقراء من الناس، لأنه لو كان مُهمَّة الأنبياء والرُّسل إدخال الناس في دين الله لكان من المَصلحة للدعوة أن يُدخِلوا الأشراف والقادة من الناس في الدين، لأنه لو آمن هؤلاء تَبِعهم بقيَّة الناس وآمن الجميع.

ولذلك ليست العِبْرة في كثرة من يؤمن بالرسول، فهذا نوح مكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤]، ولكن لم يؤمن معه إلا القليل، فقد أخبر تعالى عندما أراد أن يهلك قوم نوح أنَّه لم يؤمن معه إلا قليل، وذلك مع طول المُدَّة التي قضاها في دعوة قومه قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ

عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠]، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأمم، فجعل يمر النبيُّ معه الرَّجل، والنبيُّ معهُ الرَّجُلان، والنبيُّ معهُ الرَّهْطُ، والنبيُّ ليس معه أحد» [رواه البخاري].

وفي هـذا درس للدُّعاة أنَّه ليس العِـبْرة في إخـلاصه في دعوته بكـثرة المُتأثِّرين به، بل العِبْرة بِثَبَاته على أمر الله، والدَّعوة إلى الله على بصيرة وعلى علم.

٤ - أنَّ الهِداية بيد الله، فقد حاول نوح أن يُرْكِبَ ابنه معهم في السَّفينة ليكون من النَّاجين، ولكنه أَبَى فكان من المُغرقين، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].

n

قصة قوم عاد

n

أرسل الله تعالى رسوله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه عاد، وهم الذين كانوا بالأحقاف قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١]، فدعاهم إلى عبادة الله ونبذ الأصنام والأوثان التي يعبدونها فقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:٦٥]. وبيَّن لهم أنَّه لا يريد منهم أجرًا على دعوته لهم، بل أجره على الله وحده، وأمرهم بالتوبة من عبادة الأصنام والاستغفار، وأنَّه سبب لزيادة نِعَم الله عليهم فقال لهم: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود:٥١-٥٢].

وبيَّن لهم أمانته فيما يدعوهم إليه، وأمرهم بتقوى الله وطاعته فقال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٢٥-١٢٦]. فكذَّبه قومه واتَّهموه بسفاهة العقل فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف:٦٦]. فقال لهم هود: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف:٦٧-٦٨]. فكذَّبه قومه ولم يؤمنوا بما جاء به، وزعموا أنه ليس لديه

البيِّنات التي تدلُّ على أنَّه رسول من رب العالمين، ثمَّ ادَّعوا أنَّه أصابه سوء من آلهتهم فأثَّر في عقله فقالوا: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود:٥٣-٥٤].

فتبرَّأ هود من عبادتهم وشركهم، وبما أنهم اتَّهموه في عقله فتحدَّاهم أن يكيدوا له بما استطاعوا ولا يُمهلونه، لأنه يعلم أنّه على الحق وأنَّ الله حافظه فقال: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود ٥٤-٥٦].

ثم ذكَّرهم هود بطغيانهم في الأرض، فقد أخذوا من الناس ما ليس لهم، وبطشوا بالناس بالضرب والقتل؛ لأنهم كان لديهم القوَّة في الأجسام فسخروها في ظلم الناس، ثم أمرهم بتقوى الله وطاعته فقال لهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٢٨-١٣١].

ثم أخذ هود يُذكِّر قومه بِنِعَم الله عليهم والتي تستوجب تقوى الله وشكره عليها وإخلاص العبادة له فقال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩]. وقال لهم: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾

[الشعراء:١٣٢-١٣٤].

فازدادوا كُفرًا وعنادًا وكذَّبوا هود في كل أحواله، سواء وعظهم أم تركهم فلن يؤمنوا به، وزعموا أنَّ النِّعم التي امتنَّ الله بها عليهم تحصل لكل الناس، وهي عادة لجميع البشر، فمرة يغتنون ومرة يفتقرون ولذلك لن تكون النِّعم التي لديهم سببًا لإيمانهم؛ لأنهم ظنُّوا أنَّهم مستحقُّون لها وأنَّهم لن يُعذَّبوا إذا كفروا بالله وجحدوا النِّعم التي لديهم فقالوا: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:١٣٦-١٣٨].

فبيَّن هود لقومه أنَّه حريصٌ على إيمانهم ودعوتهم إلى الله؛ وذلك لخوفه عليهم وشفقته بهم فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٣٥]. فاستكبروا وزعموا أنَّه لا يوجد من هو أشدُّ منهم قوَّةً فقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥]. وحينها ازداد كفرهم وتكذيبهم لنبيِّهم لأنهم رفضوا ترك عبادة أصنامهم التي كان يعبدها آباؤهم بسبب دعوة هود لهم، فتحدَّوه أنْ يأتيهم بالعذاب الذي توعَّدهم به إنْ لم يؤمنوا فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:٧٠].

فتعجَّب منهم في مجادلتهم له في الله، وهم يعبدون أصناما سمَّوها هم وآباؤهم، ما أنزل الله بها من سلطان فقال: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ

وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ﴾ [الأعراف:٧١].

ثم أخبرهم أنَّ العذاب سيأتيهم من عند الله، والله هو الذي يعلم متى يكون عذابهم، وإنما هو رسول من عند الله يبلغهم رسالة الله لهم، ولكنهم قوم يجهلون فقال لهم: ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ [الأحقاف:٢٣]. ثم قال لهم متوعِّدًا إياهم لكفرهم بالله وتحدِّيهم لله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف:٧١].

فلمَّا جاءهم العذاب من عند الله، جاءتهم السُّحب فظنُّوها الغيث والمطر الذي يُغيثهم فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤]. فقال الله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥]، أي أنَّ هذا العارض الذي ظننتموه مطرًا هو العذاب الذي استعجلتموه، وهي ريح عاتية باردة ولها صوت عظيم، وفيها العذاب الأليم وتُدمِّر كل شيء، ولا تذر شيئًا إلا جعلته متهالكًا باليًا، قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذَّاريات:٤١-٤٢]، فكانت هذه الريح العاتية التي أهلك الله بها قوم عاد سبع ليالٍ وثمانية أيَّام، فجعلت أجسامهم مُلقاةً كجذوع النخل على الأرض قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقَّة:٦-٧]، وكانت هذه الأيَّام

متتابعات كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فُصِّلت:١٦]، وأنجى الله هود والذين آمنوا معه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود:٥٨]، وقال الله عن قوم عاد: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦]، أي إنَّ الله مكَّنهم في الأرض، يأكلون من خيراتها ويتمتعون بما أنعم الله عليهم فيها، وأعطاهم السمع والبصر والأفئدة، ولكنهم لم يعقلوا بها الحق، ولم يؤمنوا بالله وكانوا مُستهزئين، فاستحقُّوا العذاب.

العِبْرة:

١- الاستغفار سبب من أسباب نزول الغيث، وسبب من أسباب الشفاء من الأمراض، ولذلك فقد قال هود لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود:٥٢]. وذلك لأنَّ ما يصيب الناس من تأخُّر المطر أو بعض الأمراض فهو بسبب الذنوب، فيكون الاستغفار هو الحل لهذا البلاء.

٢- البلاء الذي يُصيب الناس، والشدَّة التي يمرُّون بها، قد تكون تذكيرًا لهم من الله لكي يتوبوا ويرجعوا إليه، وليست الشدائد مجرَّد عادة تحصل لجميع البشر فمرة يغتنون ومرة يفتقرون كما زعم قوم عاد فقالوا:

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:١٣٧-١٣٨]. ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٢-٤٥].

٣- النِّعم التي يعطيها الله للناس تستوجب شكر الله عليها واستعمالها في طاعته، وتستوجب إخلاص العبادة لله، ولذلك لمَّا جحد قوم عاد نِعَم الله التي أعطاهم واستكبروا وكفروا بالله أنزل الله عليهم العذاب.

n

قصة قوم ثمود (أصحاب الحِجْر)

n

أرسل الله تعالى رسوله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قوم ثمود، وقد سمَّاهم الله في القرآن الكريم (أصحاب الحِجر) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر:٨٠]، وقد دعاهم نبيهُم صالح إلى عبادة الله وتوحيده ونبذ الشرك؛ لأنهم قد أشركوا بالله فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود:٦١]. فظنُّوا أنه يريد أجرًا منهم مقابل دعوته، فقال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٤٢-١٤٥]. فقالوا لصالح: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود:٦٢]. أي كنَّا نؤمِّل فيك أن تكون صاحب عقل ورأي -وذلك لِمَا رأوه من صالح من الخير والصلاح- ولكن لمَّا دعاهم إلى عبادة الله لم يُعجبهم ذلك فاختلف رأيهم فيه، وأصبحوا يقدحون فيه، فقالوا: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء:١٥٣].

فأخبرهم صالح أنَّه يدعوهم على بيِّنةٍ من الله، فهو رسول ويأتيه الوحي فقال لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود:٦٣]، ثم أخذ يسألهم عن

مسارعتهم في عمل السيئات قبل الحسنات فقال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦]. فأخذوا يتشاءمون ويتطيَّرون بصالح ومن آمن معه ويزعمون أنه انقطع عنهم الخير بسببهم قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل:٤٧]، فردَّ عليهم صالح بأن الله يأخذهم بالسراء والضراء لعلَّهم يؤمنون، وأخبرهم أنهم مفتونون بالشرك بالله، فأعمى بصائرهم عن معرفة الحق فقال لهم: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل:٤٧].

فأنكروا على صالح أنه يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله وهو بشر مثلهم فقالوا له: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء:١٥٤]. وطلبوا منه أن يأتيهم بآيةٍ معجزةً لكي يُصدِّقوه فقالوا: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء:١٥٤]. فدعا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فأخرج لهم ناقة عظيمة، وقال لهم صالح: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥]. فتشرب الناقة من البئر يومًا ويشرب الناس يومًا، وأمَّا رعي الناقة فإنها تأكل من الأرض ولذلك قال صالح: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [هود:٦٤]. ثم وعظهم وذكَّرهم بأن الله قد أعطاهم الآية التي طلبوها فيجب عليهم أن يؤمنوا بالله، وحذَّرهم من أن يقتلوا الناقة أو يمسُّوها بسوء فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

ثم أخذ يُذكِّرهم بِنِعَم الله عليهم، فكانوا ينحتون الجبال بيوتًا، ويتخذون من السهول قصورًا، ولهم فيها مزارع، فكل هذه النعم تستوجب منهم طاعة الله وإخلاص العبادة له فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤]، وقال لهم أيضًا: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٤٦-١٥٠].

ونهاهم عن طاعة المسرفين والمفسدين، فقال: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:١٥١-١٥٢]. لأنه كان عندهم مجموعة من المفسدين في الأرض وكانوا يُطيعونهم، فقال الله عنهم: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨].

وبعد أن أعطاهم الله الآية التي طلبوها ازدادوا كُفرًا وعنادًا فقالوا للمُستضعفين الذين آمنوا: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأعراف:٧٥]. فقال المستضعفين من قومهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٧٥]. فقال المستكبرون من قوم صالح للمستضعفين الذين آمنوا: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف:٧٦].

ثم انطلقوا لقتل النَّاقة، لأنهم زعموا أنها آذتهم لأنَّ لها يومًا كاملًا تشرب من البئر وهم في حاجة الماء، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ

رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف:٧٧]، والذي باشر قتلها هو أشقى القوم كما قال تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس:١٢-١٤]، ثم بالغوا في عنادهم واستكبارهم وطغيانهم فقالوا: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧]. فقال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥]. فلم يرتدعوا، بل تآمروا على قتل صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهله، قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:٤٨-٥٠]، ولكن الله حفظ رسوله وأهلك قوم ثمود قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٥١-٥٢]، وقد أهلكهم الله بالصَّيحة قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:٦٧]، وأنجى الله صالح والذين آمنوا معه قال تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل:٥٣]، فلما أهلك الله قوم ثمود قال صالح: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩]. وقال الله عن قوم ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فُصِّلت:١٧-١٨]، أي أنَّ الله أعطى قوم ثمود معجزةً تكون سببًا في هدايتهم وهي الناقة، ولكنهم استحبُّوا عمى البصيرة

والسير في الطغيان والشرك، على ما أعطاهم الله من الهُدى فكانت عاقبتهم أن عذَّبهم الله بالصَّيحة، وأنجى الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ والذين آمنوا معه.

العِبْرة:

١- أنَّ كل الأنبياء لا يطلبون من أقوامهم أجرًا مقابل دعوتهم إلى الله، فهم يدعون إلى إخلاص العبادة لله، فلذلك هم يريدون الأجر من الله وحده ولذلك قال صالح لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٤٢-١٤٥]، وهذه مقولة كل الأنبياء والرُّسل، فلذلك يجب على كل من يدعو إلى الله ألَّا يكون همُّه ما يُحصِّله من مال أو شهرة أو ثناء من الناس مقابل دعوته، بل يكون همُّه رضا الله أولًا ثم الدَّعوة إلى الله على بصيرة وعلم، والثبات على المنهج المستقيم حتى يلقى الله.

٢- ليس المقياس لاستقامة الشخص وصلاحه هو ثناء الناس عليه، فالناس يثنون على من يوافق أهواءهم، وانظر لقوم ثمود عندما قالوا لصالح: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود:٦٢]. أي كنَّا نرجوا أن تكون من كبارنا -وهم على الشرك- وتكون صاحب عقل ورأي عندنا، فلمَّا دعاهم إلى الله تغيَّر رأيهم فيه فقالوا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء:١٥٣].

ولذلك صلاح الشخص واستقامته تكون بصلاح قلبه فإذا صلح قلبه انعكس ذلك على عمله، فيكون عمله صالحًا، فصلاح العمل هو المقياس على استقامة الإنسان، ولذلك قال ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم،**

ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [رواه مسلم]. ولذلك ثناء الناس على الشخص ليس المعيار الصحيح لمعرفة استقامة الإنسان، فقد جاء عن سهل بن سعد السَّاعِدي أنه قال: مرَّ رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: **«ما رأيك في هذا؟»** فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ وإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ. قال: فَسَكَتَ رسول الله ﷺ. ثم مرَّ رجل آخر فقال له رسول الله ﷺ **«ما رأيك في هذا؟»** فقال يا رسول الله: هذا رجل من فُقَرَاء المسلمين، هذا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ وإِنْ شَفَعَ أَنْ لا يُشَفَّعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ. فَقَالَ رسول الله ﷺ: **«هذا خَيرٌ منْ مِلْءِ الأرض مِثْلَ هذا»** [رواه البخاري]، أي أنَّ الثاني الذي لا يأبه له الناس خير من الأول الذي يثني عليه الناس.

فالناس لا يكون قولهم دقيقًا في الثناء على الإنسان، لأنه يغلب عليهم الأهواء والمصالح، والقليل من يُنصف الناس في الحكم عليهم، ولذلك فالأجدر بالثناء والأكرم عند الله هو الأتقى قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

٣- أنَّ الله حافظ رسله وأولياءه، ولذلك لما تآمر قوم ثمود على قتل نبيِّهم صالح وأهله، أهلك قومه، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٥٠-٥٢]، وأنجى الله صالحًا والذين آمنوا معه قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [النمل:٥٣].

قصة محاجَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه وقومه لإثبات التوحيد

n

أرسل الله تعالى إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى أبيه وقومه ليدعوهم إلى عبادة الله وحده، ونبذ كل ما يُعبَد من دون الله، لأنَّهم كانوا يعبدون الأصنام قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٤-٧٥].

فبدأ معهم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بإظهار الحجج العقليَّة لهم التي تدل على أنَّ الله وحده هو المستحق للعبادة، وأنَّ كلَّ ما يُعبَد من دونه لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، فأخذ يُجاري قومه في أفكارهم لكي يبيِّن لهم الضلال الذي يعيشون فيه، فلما جاء الليل اختار كوكبًا من الكواكب في السماء وقال: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام:٧٦]. فلمَّا جاء الصباح اختفى ذلك الكوكب فقال إبراهيم: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦]. أي أنَّه لا يمكن لهذا الكوكب أنْ يكون معبودًا؛ لأنَّه غير موجود في كل الأوقات، والعبد يحتاج إلى إله في كل لحظة.

فلما جاء الليل مرة أخرى رأى إبراهيم القمر فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام:٧٧]. فلمَّا جاء الصباح اختفى القمر فقال إبراهيم: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام:٧٧]. أي أنَّ القمر اختفى مثل الكوكب

الذي قبله، فلذلك لا يصلح أنْ يكون معبودًا؛ لأنَّه غير موجود في كل الأوقات، فلمَّا طلعت الشمس رآها إبراهيم فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ [الأنعام:٧٨]. أي أكبر من الكوكب الذي اختاره أولًا وأكبر من القمر، فلما جاء الليل واختفت الشمس قال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٨-٧٩].

أي هـذه المعبودات التي من دون الله لا تصلح للعبـادة، لأنها غير موجودة في كل الأوقات، وحينها تبرَّأ إبراهيم أمام قومه من الشرك، ومن كلِّ ما يُعبد من دون الله، فالله هو خالق الخلق وموجدهم وهو المستحق للعبادة، ثم أخذ قوم إبراهيم يحاجُّونه ويجادلونه، وكأنَّهم من ضلالهم أرادوا أنْ يخوِّفونه من بطش آلهتهم، فقال لهم منكرًا عليهم: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام:٨٠-٨١]، أي كيف أخاف من آلهتكم، وأنتم لا تخافون من الله الذي خلقكم وأوجدكم، ثم عبدتم غيره بغير حجَّةٍ ولا برهان؟ وفي هذه الحالة من هو الذي يستحق أنْ يكون له الأمن؟

ثمَّ بيَّن الله بعد ذلك مَن الذي يستحق الأمن؟ فذكر أنه الذي ءامن بالله وحده، ولم يُشرك معه غيره، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم

بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، ثمَّ بيَّن الله أنَّ هذه الحجَّة التي مع إبراهيم، قد أعطاها الله إيَّاه، وجعل في ذُرِّيَّته النُّبوَّة والكتاب، فإبراهيم هو أبو الأنبياء، والأنبياء الذين بعده كلُّهم من ذُرِّيَّته، فبيَّن الله أنَّه هداهم للتوحيد وإلى الحق، وأمرنا أن نقتدي بهداهم في إخلاص العبادة لله، لأن أصل دعوة الأنبياء واحدة وهي إخلاص العبادة لله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، فأمرنا الله بالاقتداء بالأنبياء في توحيدهم لله، وإخلاص العبادة له وحده دون سواه، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٣-٩٠].

العِبْرة:

١- جواز استخدام الأدلة العقليَّة لإثبات وحدانية الله تعالى وأنه المستحق للعبادة لمن لم يؤمن بالكتاب وبما جاء من آيات من عند الله، كما

فعل إبراهيم مع قومه ليبيِّن لهم أن معبوداتهم لا تستحق العبادة، لأنها لا تنفع ولا تضر، وهي غير موجودة مع الإنسان في كل الأحوال، وهذا يدل على ضعف وعجز هذه المعبودات، ولهذا فلا تصلح للعبادة، والمستحق للعبادة هو الله تعالى فهو معنا في كل حين، تستطيع أن تدعوه وترجوه وتتوسل إليه في كل وقت، ولا يخفى عليه شيء من أمرنا، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤].

٢- إخلاص العبادة لله وتوحيده، أمان وطمأنينة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

٣- أهمية التوحيد، وعِظَم شأنه، فهو أصل دعوة جميع الأنبياء والرُّسل، وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠]، والله لا يغفر الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

n

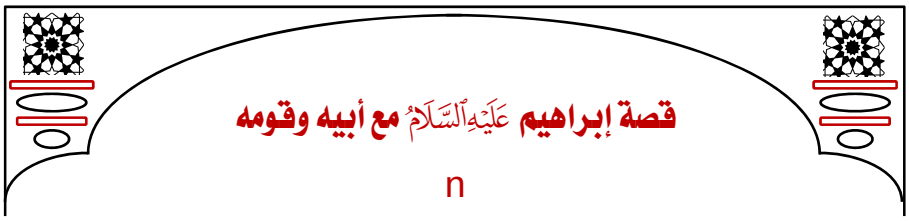

قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أبيه وقومه

n

بعد أنْ أظهر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه الحجج والبراهين العقلية التي تدل على أنَّ الله وحـده هو المستحق للعبـادة، وأنَّ ما دونه من المعبودات لا تملك ضرًّا ولا نفعًا، أخذ يدعوهم إلى الله ويبيِّن لهم وجوب إفراد الله بالعبادة، وكان يخص أبيه بالدعوة لقرابته، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم:٤١-٤٦].

ودعا إبراهيم قومه كذلك ونهاهم عن عبادة الأصنام، وأخبرهم ان عبادة الأصنام ضلال مبين، وأخبرهم أن الله تعالى الذي خلق السموات والأرض هو المستحق للعبادة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي

ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥١-٥٦]، فلما تولى قومه وعصوا، قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ [مريم:٤٧-٤٨].

وقال لقومه: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٥٧]، وكان لقومه أعياد، يخرجون إليها ويتركون أصنامهم، فأرادوا أن يخرجوا لأحد هذه الأعياد، وعندها دعوا إبراهيم للخروج معهم، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ [الصافات:٨٩]. ثم لما أخبر إبراهيم قومه بأنه سقيم، خرجوا لعيدهم وتركوا أصنامهم، فأقبل إليها إبراهيم، ثم كسَّرها، إلا كبير تلك الأصنام، فجعل إبراهيم المعول بيد هذا الصنم، فلمَّا رجع قوم إبراهيم وجدوا أصنامهم محطّمة قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾ [الأنبياء:٥٨-٦١]، فجاؤوا بإبراهيم فسألوه وقالوا له: ﴿ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء:٦٢]؟ فقال لهم إبراهيم: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٣]. وحينها أنكروا على أنفسهم عبادة هذه الأصنام قال تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ [الأنبياء:٦٤-٦٥]، فقالوا لإبراهيم: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٥]. فقال لهم إبراهيم: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٦-٦٧].

ولكنهم لم يؤمنوا مع هذه البيِّنة وأعرضوا واستكبروا وقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨]، فأضرموا نارًا عظيمة، ورموا إبراهيم بالمنجنيق في هذه النار، وذلك من شدَّة لهبها وحرِّها، فلم يستطيعوا الاقتراب منها، وعندها قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «حسبي الله ونعم الوكيل»، وقد جاء ذلك عن ابن عباس، فقال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]، [رواه البخاري]، وحينها قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٦٩-٧٠]، فأمر الله تعالى النار، أن تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم، فخرج منها ولم تضرُّه، قال تعال: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٨-٩٩].

العِبْرة:

١- يجب بر الوالدين حتى ولو كانا مشركَيْن، فهذا إبراهيم يتلطَّف مع أبيه في القول، ويقول له: «يا أبت»، مع أن أبيه مشرك بالله، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥].

٢- لا يجوز الاستغفار للمشرك، لما جاء عند البخاري أنه: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ، وعنده أبو جهل وعبد الله ابن أبي أميَّة، فقال النبي ﷺ: «**أيْ عَمِّ، قُل: لا إله إلَّا الله أُحَاجُّ لك بها عند الله**»، فقال أبو جَهْل، وعبد الله بن أبي أُمَيَّةَ: يا أبا طالب أتَرْغَب عن مِلَّة عبد المُطَّلب، فقال النبي ﷺ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لك ما لم أُنْهَ عَنْك**»، فنَزلَت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣]، [رواه البخاري]، وقد بيّن الله تعالى أنَّ استغفار إبراهيم لأبيه كان بسبب وَعْدِه لأبيه بذلك عندما قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧]، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤].

٣- أنَّ القرابة من الأنبياء أو الصالحين لا تنجي الإنسان من عذاب الله تعالى إذا مات على الشرك، وهذا أبو طالب وأبو لهب أعمام رسول الله ﷺلم تنفعهم قرابتهم من رسول الله، لأنهم ماتوا على الشرك، فلا ينجو الإنسان من عذاب الله إلا بالإيمان بالله وطاعته، ولما قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، قال: «**يا معشر قريش** -أو كلمة نحوها- **اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عَبَّاس بن عبد المطَّلب لا أغني عنك من الله شيئا، ويا صفيَّة عمَّة رسول الله لا أُغْني عنْك من الله شيْئًا، ويا فاطمة بنْتَ محمد سَلِيني ما شِئْت من مالي لا أغني عنك من الله شَيْئًا**» [رواه البخاري].

ولهذا لم تنفع آزر قرابته من إبراهيم، فهو ابنه، ولكنَّ آزر مات على الشِّرك، فسيكون من أصحاب النار يوم القيامة قال ﷺ: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إنِّي حرَّمت الجنة على الكافرين. ثم يقال لإبراهيم: ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار**» [رواه البخاري]. فيمسخ الله آزر على هيئة ضبع ثم يلقيه في النار، وذلك لتسلية إبراهيم، فلا يبقى في قلبه شفقة على أبيه وهو خالد في نار جهنم بسبب شركه بالله.

٤ – أن الكذب لا يجوز، ولذلك بيَّن رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح حيث قال: «**لم يكذب إبراهيم النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قط إلا ثلاث كذبات، ثنتين في ذات الله. قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا...**» [رواه مسلم]، لأن الأصل في الأنبياء الصدق، والذي حصل لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عارض، للظروف التي كان فيها، فبيَّنها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لئلا تُشكل على أحدٍ من الناس، فيفهم فهمًا خاطئًا من القصة، ولا يُمكن أن يكون أحدٌ من الأنبياء كاذبًا، لأنهم مؤتمنون على الرسالات السماوية، والأنبياء اصطفاهم الله تعالى واختارهم ليكونوا رُسُلًا إلى الناس، وهم أفضل البشر، وقال تعالى عنهم: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٧٥]، وقال تعالى في معرِض ذكر الأنبياء: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٧]،

فبيَّن تعالى أن الذين اصطفاهم واختارهم لرسالته من الأخيار، وبالتالي فلا يُمكن أن يكون من صفاتهم الكذب.

٥- وجوب تعليق القلوب بالله، وتقوية الإيمان به، فهذا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في أشدِّ الظروف، وهو يُرمى في النَّار، دعا الله تعالى بأن يكفيه، فقال: «حسبي الله ونعم الوكيل»، فجعل الله تعالى النَّار بردًا وسلامًا على إبراهيم.

n

قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ

n

بعد أن نجَّى الله تعالى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من النار، ءامن معه لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو ابن أخ لإبراهيم، قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٦]، ثم انتقل إبراهيم ولوط إلى الشام وهي الأرض المباركة التي أخبر الله عنها، فقال: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:٧١].

وفي يوم من الأيام دخل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوجته سارة أرض جبار من الجبابرة، وكانت قصتهم كما أخبر عنها رسول الله ﷺ فقال: «**لم يكذب إبراهيم النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ قط إلا ثلاث كذبات، ثنتين في ذات الله. قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار. أتاه، فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها، فأتي بها، فقام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فَقُبِضَت يده قَبْضَةً شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يُطلق يدي، ولا أَضُرُّك، فَفَعلت، فعاد، فَقُبِضَت أشد من القَبْضَة الأولى، فقال**

لها مثل ذلك، فَفَعلت، فعاد، فَقُبِضَت أشد من القَبْضَتَيْن الأوليين، فقال: ادعي الله أن يُطلق يدي، فَلَكِ الله أن لا أَضُرَّكِ، فَفَعلت، وأُطْلِقَتْ يده ودعا الذي جاء بها، فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان، ولم تأتني بإنسان، فَأَخرِجْهَا من أرضي، وأعطها هاجر. قال: فأقبلت تمشي فلما رآها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **انصرف، فقال لها: مهيم؟ قالت: خيرًا. كَفَّ الله يَدَ الفاجر، وَأَخْدَمَ خادمًا»**.

قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء. [رواه مسلم]. والمراد أن الكذب في مثل هذه الحالات يجوز للمصلحة.

وبعد أنْ وَهَبَ الجبَّار لسارة زوجة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هـاجر، قامت سارة ووهبتها لإبراهيم فَوَلَدت له إسماعيل، فغارت سارة بعد ذلك، فأخذ إبراهيم هـاجر وابنها إسماعيل إلى مكة لهذا الأمر، وقد أمره الله بذلك قال ابن عباس: «لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة...» [رواه البخاري].

ثم بعد ذلك أرسل الله تعالى لوط إلى قومه، فدعاهم إلى الله ولكنهم لم يستجيبوا، فأذن الله بعذابهم، فلمَّا أراد الله أن يهلكهم، أرسل ملائكة رسلًا إلى قوم لوط ليهلكوهم، وأمر الله الملائكة أن يذهبوا إلى إبراهيم أولًا ليبشِّروه بأنَّ الله سيرزقه بالولد، فجاء الملائكة الكرام عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ إلى إبراهيم، فسلَّموا عليه، فردَّ عليهم السلام، ثم جاءهم بضيافةٍ، ثمَّ قرَّبها إليهم ليأكلوا، فلم تمتد أيديهم إلى الطعام، وحينها أوجس منهم خيفة قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ

إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود:٦٩-٧٠]، فلمَّا رأوه بهذا الحال قالوا له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٠]. فعلِم أنَّهم ملائكة على هيئة بشر، وعندما سمعت زوجته بهذا الخبر فرحت، قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هود:٧١]، فبشَّروهم بإسحاق ومن وراءه يعقوب ابن لإسحاق قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١]، فتعجَّبت من هذا الخبر، لأنها وزوجها إبراهيم قد كبرا في السِّن، فقالت: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود:٧٢]. فقال الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود:٧٣]، وبعد أن تلقَّى إبراهيم البشرى أخذ يجادلهم في قوم لوط، ويقول لهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت:٣٢]. أي في القرية التي ستهلكونها بأمر الله، فقال له الملائكة: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٢]، وقال تعالى في حكاية ذلك: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود:٧٤-٧٦].

وقد جعل الله كلًّا من أبناء إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين جاءت الملائكة بالبشارة بهم إسحاق ويعقوب أنبياء، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ

ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٢-٧٣].

العِبْرة:

١- إخلاص العبادة لله وتوحيده سبب للنجاة من المهالك في الدنيا، والسلامة من عذاب الله في الآخرة، فلقد نجَّى الله إبراهيم ولوط من قومه المشركين إلى الأرض المُباركة.

٢- إخلاص العبادة لله سبب من أسباب الرزق، فإبراهيم لمَّا اعتزل قومه بسبب شركهم بالله، رزقه الله بالذُّرِّيَّة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

٣- إكرام الضيف يُعتبر من مكارم الخلاق، وهو صفة من صفات الأنبياء، فإبراهيم بالغ في إكرام ضيوفه، فأعدَّ لهم الطَّعام، وقرَّبه منهم، ودعاهم للأكل، قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات:٢٦-٢٧].

٤- الأنبياء هم أرحم الناس بالناس، فهذا إبراهيم يجادل الملائكة في قوم لوط، ويقول للملائكة: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت:٣٢]. أي في القرية التي ستهلكونها بأمر الله، فقال له الملائكة: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٢]، ثم قال تعالى عن

إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود:٧٥]، أي حليم عند الغضب، وكثير الرجوع والتوبة إلى الله تعالى.

٥- أنَّ الله على كل شيءٍ قدير، فقد رزق إبراهيم بالذُّرِّيَّة مع وجود ما يمنع ذلك وهو كِبَر السِّن.

n

قصة قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ

n

لقد أرسل الله تعالى نبيه لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه، يقول تعالى في قصة قوم لوط: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٦٠-١٧٤].

ولوط عَلَيْهِ السَّلَامُ هو ابن أخ لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولوط هو الوحيد الذي آمن لما رأى إبراهيم يخرج من النار التي أوقدها قومه ورموه فيها، فقال تعالى في قصة إبراهيم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٤-٢٦]، فلما آمن لوط أرسله الله تعالى إلى قومه، وقد كانوا يأتون

أعظم فاحشة وهي اللواط، كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:٨١]، وقال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦]، فدعاهم لوط وأنكر عليهم، فما كان منهم إلا أن ازدادوا عنادًا، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٢٨-٣٠].

وقد أراد قوم لوط إخراج لوط من قريتهم لأنه كان ينهاهم عن فعلهم فقالوا: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦]. وعندما وصلوا إلى هذا الحال من العناد والكفر والتكذيب والإصرار على الفاحشة أمر الله تعالى بعذاب قوم لوط، فجاءه ملائكة من عند الله تعالى على هيئة بشر، فأقبل إلى لوط قومه عندما علموا بقدوم الضيوف عنده، فحاول لوط منعهم، ووعظهم وقال هؤلاء أزواجكم عندكم، فاتقوا الله، فلمَّا عجز لوط عنهم، قال له الملائكة: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:٨١]. وأمَّا زوجة لوط فإنَّه أصابها العذاب لأنها كانت موافقة لفعلهم قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا

مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم:١٠]، فجمع الله عليهم أصنافًا من العذاب، فرفعهم إلى السماء، ثم أرسل عليهم حجارة من سجيل، ثم قلبهم وردَّهم إلى الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٧٧-٨٣].

العِبْرَة:

١- فطر الله تعالى الناس بأن الرجل يميل للمرأة والعكس، ثم شرع طريقًا مباحًا لهذا الأمر وهو الزواج، فإذا انتكست الفِطرة فهنا يكون الخطر، ويقع البلاء، ولشناعة هذا الأمر فقد جمع الله على قوم لوط أصنافًا من العذاب، لم يجمعها على غيرهم من الأمم مع شدَّة كفرهم وتكذيبهم.

فلذلك لعن رسول الله ﷺ من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط ثلاثاً، فقال: «**لعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط، لعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط، لعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط**» [رواه أحمد].

٢- إذا كان الإنسان في مجتمع فاسد فيجب عليه أن ينهى عن هذا الفساد ويقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى إذا وقع العذاب على هذا المجتمع ينجو الذي كان ينهى عن الفساد، وأمَّا من وافق هذا الفساد والمعصية فإنَّه إذا جاء العذاب فإنَّه سيصيبه ما يصيب هؤلاء المفسدين حتى وإن لم يفعل فعلهم.

ولذلك لمَّا جاء العذاب على قوم لوط، أصاب زوجة لوط العذاب وذلك لأنها كانت موافقة لفعل هؤلاء القوم ولذلك قال الملائكة للوط: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:٨١]. والسبب في أنَّ زوجة لوط أصابها العذاب هو كما أخبر تعالى فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم:١٠]. والمراد بالخيانة هنا هي أنَّهما لم يكونا على منهج أزواجهنَّ ولا على دينهم.

n

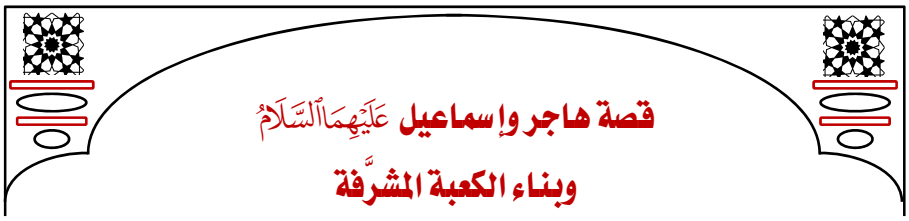

قصة هاجر وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ
وبناء الكعبة المشرَّفة

n

جاءت القصة في صحيح البخاري عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قِبَلْ أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه، فقال: رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم حتى بلغ يشكرون، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم

سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فذلك سعي الناس بينهما**»، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا، فقالت: صه. تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث. فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا**». قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن ها هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا قال وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس**». فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم

وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرٍّ نحن في ضيق وشدة فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقولي له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك. فطلقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة. وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي ﷺ: «**ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم دعا لهم فيه**». قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة -وأثنت عليه- فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة أمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبا

من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتا. وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧]، قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧]، [رواه البخاري].

وقد دعا الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يجعل حرم مكة آمنًا، فحرَّم الله فيه القتال، ودعا الله بأن يجنِّبَه وذريته عبادة الأصنام، لأنها أضلَّت كثيرًا من الناس عن عبادة الله تعالى، ثم قال إبراهيم: فمن تبعني على التوحيد فهو منِّي، وقد قال الله عن إبراهيم: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج:٧٨]، وقال إبراهيم: ومن خالفني في عبادة الله، فالله يغفر له ويرحمه. وهذا من رحمة إبراهيم بالناس، وقد قال الله عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود:٥٧]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦]، وبعد أن ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل، في مكة دعا الله تعالى بأن يجعل هذا البلد مهوى لأفئدة الناس، وأن يرزقهم فيه من الثمرات، ثم حمد الله على ما رزقه من الذرِّيَّة

على كِبَرِ سنِّه، ودعا الله أن يجعله وذرِّيَّته مقيم الصلاة، ودعا بالمغفرة له ولوالديه وللمؤمنين، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٣٧-٤١]، واستغفار إبراهيم لأبيه وهو مشرك، هو الوعد الذي وعد أبيه، عندما رفض دعوة إبراهيم له إلى التوحيد، فقال إبراهيم لأبيه: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ [مريم:٤٧]، فقال الله تعالى عن استغفار إبراهيم لأبيه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة:١١٤].

وعندما بدأ إبراهيم ببناء الكعبة وإسماعيل، كانوا يدعون الله تعالى أن يتقبل منهم، وأن يجعلهم مسلمين لله وذرِّيَّتهم، ودعوا الله أن يبعث رسولا من ذُرِّيَّتهم للناس، فاستجاب الله دعائهم، فكان من ذُرِّيَّة إسماعيل خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ

وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٧-١٢٩].

العِبْرة:

١- الإيمان بالله والثقة بوعده والعمل بأمر الله، سبب لحصول الخير للإنسان في الدنيا والجنة في الآخرة، فهذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر بوادٍ ليس فيه زرع ولا ماء، ولكن تركهم هناك لأن الله أمره بذلك، وهاجر في إيمان وثقة بوعد الله وحفظه، لما قالت لإبراهيم: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. [رواه البخاري].

فانظر كيف حفظ الله إسماعيل وأمه هاجر، وأعطاهم ماء زمزم الذي لاتزال بركته إلى اليوم وستبقى كذلك، فقد قال ﷺ عن ماء زمزم: «**إنها مباركة إنها طعام طعم**» [رواه البخاري]، وقال ﷺ: «**خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام من الطعم وشفاء من السقم**» [رواه الطبراني]، وانظر كيف استجاب الله دعاء إبراهيم فجعل هذا الوادي الذي ليس فيه زرع مهوى أفئدة المسلمين يستقبلونه في صلاتهم، ويحجونه ويعتمرونه.

٢- يجب على الإنسان أن يشكر الله على نعمه، وألا يكثر النظر فيما ليس عنده، بل يستشعر نِعَم الله عليه ويتفكر فيها ويشكر الله عليها، وحينها يعلم أنه في نِعَمٍ عظيمة، فإبراهيم أمر ولده إسماعيل بفراق زوجته الأولى لأنها لم تستشعر نِعَم الله، فكانت تشكو ضيق الحال، وأمره بإمساك الثانية

لأنها استشعرت نِعَم الله وأثنت على الله، فأمره أن يمسكها.

وهذا يجب أن يكون منهج المسلم في النعم، وهي أن يستشعر ما أنعم الله به عليه ويشكر الله، ولا يكثر النظر فيما ليس عنده من النِّعَم، بل ينظر إلى من هو أقل منه فيكون ذلك سبب في استشعاره لنِعَم الله وشكره عليها، ولذلك قال ﷺ: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخَلْقِ فلْيَنظُر إلى من هو أسفل منه**» [رواه البخاري].

٣- الله لا يغفر لمن مات على الشرك، لأنه لا حجَّة لمخلوق أمام الله إذا لقيه وهو يشرك به، لأن الحجَّة قامت على البشر بأنَّ الله هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فقد فطر الله جميع الناس على التوحيد، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠]، وأشهد بني آدم على أنفسهم أنه هو الله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، ولم يترك الله أمة من الأمم إلا أرسل إليهم رسلًا مبشِّرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، ومن يشرك بالله بعد ذلك، فقد استحق العذاب.

وأمَّا دعاء إبراهيم في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦]، فهذا من رحمة إبراهيم بالناس، وقد قال الله عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود:٥٧]، والحليم هو من لديه سعة الصدر على المخالف، ولذلك دعا إبراهيم بالرحمة والمغفرة لمن خالفه في عبادة الله، ولكن الله أعلم بالناس، وهو أرحم بهم، ومع ذلك أخبر بأن من يرغب عن ملة إبراهيم فقد سفه نفسه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠]، أي من يرغب عن ملة إبراهيم إلا من جهل وأخطأ.

٥- الدعاء من أعظم العبادات، وقد قال ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**». ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، [رواه احمد]، والإكثار من الدعاء علامة على قوة الإيمان بالله، فهذا إبراهيم، خليل الرحمن كان يُكثر من دعاء الله، وانظر كم نقل الله لنا من دعاءه؟ وانظر كيف أثنى الله تعالى على إبراهيم فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠]، أي كان إبراهيم إمامًا يُقتدى به.

n

قصة الذبيح

n

بعد أن بنى إبراهيم الكعبة هو وابنه إسماعيل عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، رأى إبراهيم رؤيا في المنام أنّه يذبح ولده إسماعيل، ورؤيا الأنبياء وحي، فقال إبراهيم لابنه إسماعيل: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢]؟ فقال إسماعيل في إيمان وتسليم لأمر الله: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢]، فانطلق إبراهيم بابنه لينفذ ما أمره الله به، وعندها خرج له الشيطان عند الجمرات الثلاث ليفتنه عن أمر الله.

فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «**لما أتى إبراهيم خليل الله المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثانية فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثالثة، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض**»، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: الشيطان ترجمون، وملة أبيكم إبراهيم تتبعون.[رواه الحاكم].

ثم لمَّا أضجع إبراهيم ابنه ليذبحه، أتاه الوحي من الله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:١٠٥]، وفداه الله بذبح من الغنم، وصار نُسُكًا إلى يوم القيامة، قال تعالى في هذه القصة: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ

فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾ [الصافات:١٠١-١١٣].

العِبْرة:

١- رؤيا الأنبياء وحي، ودلَّ على ذلك قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢].

٢- يجب الامتثال لأوامر الله، وانظر لإبراهيم وابنه إسماعيل وامتثالهم لأمر الله، مع صعوبة الأمر، فكان الجزاء من الله، أن فداه الله بذبح عظيم، وجعله نُسُكًا إلى يوم القيامة.

٣- حرص الشيطان أن يفتن الإنسان عن طاعة الله، وقد أقسم إبليس على ذلك، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص:٨٢]، فانظر حرص إبليس على أن يفتن إبراهيم عن تنفيذ أمر الله في ذبح ولده، وهذا حال إبليس مع الناس، فكلما زاد إيمان الإنسان وقربه من الله، قد تزيد وساوس الشيطان عليه ليحرفه عن طاعة الله، فقد جاء عن أبي هريرة أنه جاء ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به؟ قال: «**وقد وجدتموه؟**» قالوا: نعم، قال: «**ذاك صريح الإيمان**» [رواه مسلم]،

ولذلك يجب على الإنسان ألَّا يلتفت لوساوس الشيطان التي يريد بها أن يصرفه عن طاعة الله، وقد بيَّن لنا ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ طريقة التخلُّص من هذه الوساوس، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٦]، أي إذا ألقى الشيطان في نفسك الوساوس فاستعذ بالله منه يكفيك الله شره.

٤- الابتلاء سنَّة إلهيَّة من سنن الله تعالى، والحياة كلها ابتلاء واختبار ليرى الله من هو أحسن عملًا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك:٢]، وقد أخبر الله انه يبتلي المؤمنين ليظهر الصادق في إيمانه من الكاذب، فقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٢-٣]، فيجب على الإنسان في حال الابتلاء أن يثبت على أمر الله، وأن يصبر، وهذا الذي فعله إبراهيم في حال ابتلاءه بذبح ولده، فكانت النتيجة كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصافات:١٠٣-١١١].

n

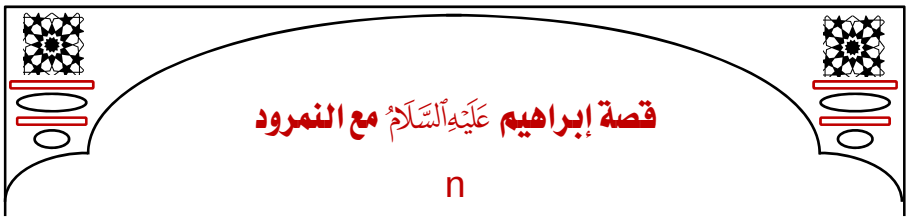

قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع النمرود

n

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

ورد في هذه الآيات الكريمة قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع النمرود، وهو أن إبراهيم دعاه إلى الله فعاند واستكبر، فأتاه إبراهيم بالحجج والبراهين التي توجب عبادة الله وحده فقال له إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]. فقال النمرود: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]. ويقصد بذلك، أنَّه يأتي باثنين محكوم عليهما بالقتل، فيقتل واحدًا ويترك الآخر، فيزعم بذلك أنَّه يحيي ويميت، وعندها علم إبراهيم أنه معاند وأن حجَّته باهته، فأتاه إبراهيم بحجَّة أقوى لا يستطيع ردَّها، فقال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]. وحينها بُهت الذي كفر وانقطعت حجَّته.

العِبْرة:

١- ينبغي على الإنسان ألّا يُجادل في آيات الله، لأن كلَّ من يجادل في آيات الله وشرعه ما يمنعه من الإيمان بالله إلا الكِبْر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ

مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر:٥٦]، وقال تعالى عن الجاحدين والمكذبين بآيات الله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل:١٤].

وضعف حجَّة النمرود في إحياء الموتى دليل على تكبُّرِه، لأنها حجَّةٌ لا يأخذ بها عاقل، والذي دفعه على قولها هو الكِبْر.

٢- الخلق والرزق والإحياء والإماتة، كلُّها بيد الله، ولا يُشاركه فيها أحد، ولا يقدر عليها مخلوق، قال تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر:٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس:٨٣].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨]، بيان من الله تعالى بأنه لا يهدي القوم الظالمين لأنفسهم بالشرك، لأن الله علم في سابق علمه أنهم لن يهتدوا، لأنهم لم يريدوا الهداية ولم يعملوا لها فأضلهم الله، فالله قد أعطى الإنسان مشيئة واختيار، ولكن مشيئة الإنسان واختياره لا تكون خارجةً عن مشيئة الله وإرادته، ولذلك قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن

يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨]، فمن شاء أن يستقيم ويؤمن بالله فعليه أنْ يعمل بأسباب الهداية من دعاء الله أن يهديه ويصاحب الصالحين ويقصد مواطن الخير، وفي هذه الحالة إذا علم الله صدقه هداه، ومن شاء الغواية والضلال والشرك وعمل بأسبابها فسوف يُضِلُّه الله، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠]، والمراد بالحسنى في هذه الآيات هي كلمة التوحيد، (لا إله إلا الله).

n

قصة رؤية إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ
ملكوت السموات والأرض

n

طلب إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من ربه عَزَّوَجَلَّ أنْ يريه كيف يُحيِي الموتى فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠]. فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ [البقرة:٢٦٠]. فقال إبراهيم: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]. فأمره الله أن يأخذ أربعة من الطير ثم يقطِّعها إلى أجزاء، ثم يجعل على كل جبل من الجبال التي حوله جزء من هذه الطيور، فقال الله له: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقر:٢٦٠]. ثم أمره أنْ يدعوها فيُحييها الله ثم تأتي إلى إبراهيم مسرعة فقال الله: ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة:٢٦٠]، ثم قال الله في ختام القصة: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقر:٢٦٠].

العِبْرة:

١ - مراتب العلم هي:

علم اليقين، وهذه مرتبة عالية؛ لأن الإنسان أصبح يعلم علم اليقين بالشيء فيتيقن بوجوده.

ثم عين اليقين، وهذه مرتبة أعلى من الأولى؛ لأنَّ الإنسان رأى بعينه فعندها يوقن بالأمر.

ولذلك قال الله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥-٧]، فحن نؤمن بوجود نار جهنم وعِلْمُنِا بها هو علم اليقين، لأننا آمنَّا بالله وبرسوله، وأخبرنا الله بها في كتابه العزيز، وأخبرنا بها على لسان رسوله الكريم ﷺ، ولكن يوم القيامة عند مشاهدة جهنم رأي العين يصبح العلم بها أوكد، واليقين أتم، ولذلك قال الله: ﴿لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٧].

ولذلك أراد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يصل إلى هذه المرتبة العالية من العلم وهي عين اليقين، فقد كان إيمانه بالبعث هو علم اليقين لما أخبره الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن أراد إبراهيم أن يصل إلى مرتبة العلم بالبعث ليراه بعينه فيصبح عنده عين اليقين، ولذلك قال الله عن إبراهيم: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥]، فعندها ازداد يقين إبراهيم بالبعث والنشور يوم القيامة.

٢- الإيمان يبعث الطمأنينة في النفس والراحة في القلب، ولذلك قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

وبين الله تعالى أن من اتصف بالإيمان والتقوى فلا خوف عليه فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

ولذلك عندما سأل الله عَزَّوَجَلَّ إبراهيم عندما طلب منه أن يريه كيف يحيي الموتى فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ [البقرة:٢٦٠]؟ فقال إبراهيم: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]. أي لتحصل له الطمأنينة بالإيمان.

٣- أنَّ البعث والنشور يوم القيامة حق، وسيبعث الله جميع الخلائق ويجازيهم على أعمالهم، وهذه القصة دليل على البعث والنشور.

n

قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

n

يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هو كما قال عنه رسول الله ﷺ: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم** عَلَيْهِمُ السَّلَامُ» [رواه البخاري].

عندما كان صغيرًا رأى رؤيا قصَّها على أبيه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف:٤]. فكانت رؤيا حسنة، فخاف عليه أبوه من كيد إخوته؛ لأنه يعلم أنهم يحسدون يوسف، وبيَّن أنَّ الشيطان سوف يُزيِّن لهم ذلك، فقال يعقوب ليوسف: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف:٥].

ثم ذكر الله تعالى منَّته وفضله على يوسف فقال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف:٦]. أي إنَّ الله اصطفاك واختارك للنبوَّة والرِّسالة، وعلَّمك تأويل الرؤى والأحلام، فيُتم النِّعمة عليك وعلى أبيك، كما أتمَّ النِّعمة على أبويك إبراهيم وإسحاق، إنَّ الله وسع علمه كل شيء وهو الحكيم فيضع الأمور في مواضعها الصحيحة.

وكان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يُفضِّل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخوه بنيامين على إخوتهم، وكان هذا ما أثار الحسد في نفوس إخوة يوسف، فدفعهم ذلك إلى الرغبة القويَّة في التخلُّص منه، وكان هدفهم من ذلك هو أن يُقبل عليهم أبوهم يعقوب بالمودَّة والمحبَّة في حال عدم وجود يوسف، فأراد بعضهم قتله، ولكن أحدهم وأرحمهم اقترح أن يلقوه في البئر؛ يلتقطه بعض القوافل المارَّة فلا يعلمون من هو، فيأخذونه معهم قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف:٧-١٠]، فذهبوا إلى أبيهم وطلبوا منه أن يأذن ليوسف للخروج معهم فقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف:١١]، وزعموا أنَّ طلبهم أنْ يخرج معهم يوسف لـ: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف:١٢]، ووعدوا أباهم بالعناية بيوسف فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف:١٢]. فأخبرهم أبيهم بالسبب الذي يمنعه من الإذن ليوسف بالخروج مع إخوته فقال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ [يوسف:١٣]، فهو لا يريد مفارقة يوسف، والذي يمنعه أيضًا من السماح ليوسف بالذهاب مع إخوته هو خوفه عليه فبيَّن ذلك لأبنائه بقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف:١٣]. فقال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [يوسف:١٤]. أي إنْ أَكَلَ الذئب

يوسف ونحن جماعة -وكان عددهم عشرة من غير يوسف وبنيامين- فإننا خاسرون، فحينها أذِنَ يعقوب ليوسف بالذهاب مع إخوته والخروج معهم، فأخذه إخوته وأجمعوا على تنفيذ ما اتفقوا عليه، فذهبوا بيوسف إلى بئرٍ وأخذوا قميصه ووضعوه فيها، وحينها أوحى الله ليوسف فقال: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:١٥].

ثم عاد إخوة يوسف إلى أبيهم وهم يتظاهرون بالبكاء قال تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف:١٦]، ثم ذكروا لأبيهم حجَّة واهية وقصَّةً مُخْتَلَقَةً ليخفون بها جريمتهم بحقِّ أخيهم فقالوا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف:١٧]. أي ذهبنا لنتسابق وتركنا يوسف لوحده عند متاعنا فجاءه الذِّئب، فأكله في أثناء غيابنا وذهب به، ثم قالوا كلامًا يدلُّ على كَذِبهم وهو قولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف:١٧]. فإذا لم يكونوا صادقين بشهادتهم على أنفسهم أمام أبيهم، فهذا دليل عَرَفَ به أبيهم من خلاله أنَّهم كاذبين.

ثم جاءوا بدليل بزعمهم أنَّه حُجَّةٌ لهم أمام أبيهم، فوضعوا على قميص يوسف دم شاةٍ ذبحوها، قال تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:١٨]، فلمَّا رآه يعقوب اجتمعت عنده القرائن التي تدلُّ على كَذِبِ أبنائه بشأن يوسف فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]. فحزن يعقوب على يوسف أشدَّ الحزن.

وبعدما ذهب إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وتركوه في البئر جاءت قافلة، فأرسلوا رسولًا إلى البئر ليُحضِر لهم الما، فلمَّا أنزل الدلو في البئر تعلَّق فيه يوسف، فلما رآه الرسول فرح واستبشر؛ لأنه اعتقد أنَّه سيكون خادمًا معه يُعينه على العمل، فأخذته القافلة وسارت به إلى مصر قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:١٩]، فلما وصلت القافلة إلى مصر أخذه أصحاب القافلة وباعوه في السوق بثمنٍ قليل، فاشتراه عزيز مصر قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف:٢٠]. ثم ذهب به إلى بيته وقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف:٢١]. أي ينفعنا بأيِّ نوع من النَّفع والعمل كأن يكون خادمًا، أو يعاملونه كأنَّه من أولادهم، ثم قال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١]، أي بقاء يوسف في بيت العزيز هو بداية التَّمكين له في الأرض، فقد أكرمه عزيز مصر ونشأ يوسف في بيته، وعلَّم الله يوسف العلم وعلَّمه تأويل الرؤى والأحلام، ثم لمَّا كَبُرَ يوسف اختاره الله ليكون نبيًّا رسولًا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢].

وعندما نشأ وترعرع وكَبُرَ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في بيت عزيز مصر، راودته زوجة العزيز، وهيئت الأسباب لذلك، فأغلقت الأبواب وتهيئت له قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ

لَكَ﴾ [يوسف:٢٣]، فقال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣]. أي معاذ الله أنْ أفعل هذا، فقد أكرمني العزيز، وهذا من الظُّلم الذي لا يُفلح صاحبه، فَعَصَم الله يوسف عن فعل الفاحشة وأعطاه البرهان الذي يمنعُهُ من ذلك، وهو العلم والإيمان الذي في قلبه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، فأراد يوسف أنْ يذهب عنها، فتوجَّه للباب وقد أغلقته زوجة العزيز فأمسكت بقميصِه من الخلف فانشقَّ القميص، وعلى هذا المشهد دخل زوجها قال تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف:٢٥]، فأرادت زوجة العزيز أنْ تبرِّأَ نفسها وتلصق التُّهمة بيوسف، ثم اقترحت العقاب على يوسف بالسجن أو التعذيب، فقالت لزوْجها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف:٢٥]. فقال يوسف: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف:٢٦]. وهذه هي الحقيقة، وحينها شهد شاهد من أهل البيت فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٢٦-٢٧].

أي إن كان قميص يوسف قد انشق من الأمام، فهذا يعني أنَّ الزَّوجة صادقة فيما قالت، وإنْ كان قميص يوسف قد انشقَّ من الخلف، فهذا يعني أنَّ يوسف صادق فيما قال، فجاؤوا على القميص فوجدوه قد انشقَّ من الخلف، فعلموا أنَّ الزوجة هي التي راودت يوسف عن نفسه قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾

[يوسف:٢٨]، ثم قال العزيز لهما: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٢٩].

وبعد ذلك وصل خبر مراودة امرأة العزيز ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى نسوة في المدينة، فلاموها وأنَّبوها على ذلك قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف:٣٠]، فلمَّا عرفت امرأة العزيز بمكر النِّسوة دعتهنَّ إليها؛ لكي يروا يوسف، وأعدَّت لهنَّ طعامًا وأعطتهنَّ السكاكين لكي يقطِّعوا بها الطَّعام قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف:٣١]، ثمَّ أمرت يوسف بأنْ يخرج على النسوة ليروه قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يوسف:٣١]، فلمَّا رأوه ذُهِلوا ممَّا أعطاه الله من الحُسْن لأنَّه قد جاء عن رسول الله ﷺ في حديث المعراج أنَّه قال: «**ثُمَّ عَرَجَ بي إلى السماء الثالثة، فاسْتَفْتَحَ جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، فَفُتِحَ لنا، فإذَا أنا بيوسف ﷺ، إذا هو قد أُعْطِيَ شطْرَ الحُسْنِ...**» [رواه مسلم].

فقطَّع النِّسوة أيديهنَّ بالسكاكين دون أن يشعرن، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف:٣١]، ثم قلن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١]. فلمَّا شعرت امرأة العزيز أنَّ النسوة قد عذروها على ما بَدَرَ منها تجاه يوسف لمَّا رأوه، أخبرتهن أنَّ لومهنَّ لها على ما بَدَرَ منها في غير محلِّه -على رأيها- واعترفت لهنَّ بمراودتها ليوسف وأنَّه

امتنع وعفَّ عن الحرام، فتوعَّدته إنْ لم يفعل ما تأمُرُه فإنَّه سيُسجن قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف:٣٢]، وحينها دعا يوسف ربه فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣].

ودعا يوسف بصيغة الجمع؛ وهذا لأنَّ النِّسوة اجتمعوا على رأي امرأة العزيز، وزيَّنوا ليوسف أنْ يفعل ما تأمُرُهُ امرأة العزيز، ولكنَّ الله تعالى استجاب دعاء يوسف فصَرَفَ عنه كيد النسوة قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف:٣٤]، ثم ذاع الخبر وانتشر، فاتُّهِمَ يوسف وسُجِنَ قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف:٣٥].

ولمَّا سُجِنَ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ دخل معه السجن فتيان، ورأى كلُّ واحدٍ منهما رؤيا في المنام، فطلبا من يوسف تفسير رؤاهما قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾ [يوسف:٣٦]، وذكرا الأمر الذي جعلهما يطلبان من يوسف تفسير منامهما فقالا: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦].

فقال لهم يوسف: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف:٣٧]. أي قبل أن يأتي موعد الطعام القادم سأُخبركما بتأويل

رؤياكما، ولكن قبل ذلك أراد يوسف أن يدعوهما إلى عبادة الله وحده، ونبذ كلُّ ما يُعبَد من دون الله؛ لأنَّ الدعوة هي مهمَّة الرُّسل، ويوسف رسول من الله، فلذلك قام بمهمة الدعوة إلى الله فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٣٧-٤٠].

ثم بعد أنْ دعاهما يوسف إلى إفراد الله بالعبادة أخبرهما بتأويل رؤياهما فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ [يوسف:٤١]. فكان تأويل رؤياهما أنَّ الذي رأى أنَّه يعصر خمرًا سيخرج من السِّجن ويعود خادمًا كما كان، وأمَّا الذي رأى أنَّه يحمل خبزًا تأكل منه الطَّير سوف يُقتَل ويُصلب، فكأنَّ الأخير بدأ يراجعه ويريد أن يغيِّر في صياغة رؤياه لعل يوسف يعطيه تأويلًا آخر، لأنه لا يريد أن يُقتل، فلمَّا بدأ بتغيير الكلام قال يوسف: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١]. أي انتهى وتمَّ تأويل الرؤيا.

وبعد أنْ فسَّر لهما رؤياهما قال للذي ظنَّ أنَّه سوف يخرج من السِّجن

بناءً على تأويل رؤياه: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢]. أيْ اذكر قصَّتي للملك وبراءتي مِمَّا اتُّهِمْتُ به، ولكنَّ الفتى عندما خَرَجَ من السِّجن نَسِيَ قال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:٤٢]، فلمَّا نَسِيَ الفتى بَقِيَ يوسف في السِّجن بضع سنين، والبضع من ثلاثة إلى تسعة.

وفي الأثناء التي كان فيها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في السجن رأى ملك مِصر رؤيا أقلقته، فسأل أهل العلم من حوله، فلم يعرفوا لها تفسيرًاوظنوا أنها أضغاث أحلام قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف:٤٤]، وحينها سَمِعَ الفتى الذي خرج من السِّجن وقد أوَّل له يوسف رؤياه ورؤيا صاحبه ووقعت كما أوَّلها يوسف، وهو الذي رأى أنَّه يعصر خمرًا قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥]، فتذكَّر يوسف في هذه الحالة فقال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف:٤٥]، ثم ذهب إلى يوسف في السِّجن فقال له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٦].

فعبَّر يوسف السبع البقرات السِّمان والسَّبع السنبلات الخُضر بأنَّها سبع سنوات يكون فيها الخصب والمطر والزرع، والسبع البقرات العجاف

الضِّعاف والسبع السنبلات اليابسات عبَّرها بسبع سنوات من الشِّدَّة والجدب وقلَّة المطر وانعدام الزرع، ثم يأتي بعد ذلك سنة يكون فيها الخير الكثير والمطر والغيث؛ لكي تنقطع بها الشِّدَّة والجدب، ثم أخبرهم يوسف كيف يفعلون في هذه الحالة فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٧-٤٩]. أي أنَّ يوسف أخبرهم بالواجب عليهم عمله لتفادي حصول المجاعة، فيكون الحل كما أخبرهم أنْ يزرعوا في هذه السبع السنوات الأولى فيحصدون من الحبوب ما يأكلونه فقط، وأمَّا ما زاد عن حاجتهم من الحبوب فيتركونه في سنابله؛ لأنَّه أحفظ له ويبقى مدَّةً طويلةً دون أن يفسد، ثم يدَّخرونه للسبع السنوات الشَّديدة، فإذا جاءت السبع السنوات الشِّداد فإنَّهم يأكلون ما ادَّخروه من السبع السنوات الأولى، ثم تنقطع عنهم الشِّدَّة بعد ذلك بعامٍ فيه الغيث الكثير والمطر.

فلمَّا عبَّر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رؤيا ملك مصر أُعجِبَ الملك بذلك فقال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾ [يوسف،]. ليُخرجَهُ من السِّجن، ولكنَّ يوسف أراد أنْ تظهر براءته: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٠]. فدعاهنَّ الملك وسألهنَّ فقال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف:٥١]. فقال النسوة: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف:٥١]. وحينها تكلَّمت امرأة العزيز وقالت:

﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف:٥١-٥٣].

فبعد هذا الاعتراف من امرأة العزيز ظهرت براءة يوسف، فقال الملك: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف:٥٤]. وقال ليوسف: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف:٥٤]. فطلب يوسف من الملك أن يكون هو المسؤول عن خزائن مصر فقال: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥]. ثم قال الله تعالى عن يوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف:٥٦-٥٧].

وعندما أصبح يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عزيزًا لمصر ومسؤولًا عن خزائنها عَمِلَ كما عبَّر الرؤيا للملك، فزرع في السبع السنوات التي كان فيها المطر والغيث، وخزَّن من الحبوب والطعام ما كان زائدًا عن حاجة الناس؛ لكي يستهلكه الناس في السنوات المجدبة، ثم جاءت بعد ذلك السنوات التي عانى فيها الناس من الجدب وقلَّة المطر، فصار الناس من مصر ومن البلدان المجاورة يأتون إلى يوسف من أجل أخذ الطعام، وكان يبيع عليهم الطعام بنفس السعر الذي كانوا يشترونه في أيام الخصب وكثرة الأمطار ووفرة الطَّعام، فلم يستغل يوسف حاجة الناس في السنوات الشديدة، فيبيع عليهم الطعام بأضعاف سعره، وكان يبيع عليهم الطعام والحبوب بالتساوي، فكان

يعطي كلَّ فردٍ من العائلة حِمْلُ بعير ولا يعطيه أكثر من ذلك، لكي يكفي الطعام والحبوب التي عنده جميع الناس، ولكي لا يأتي المقتدرون لشراء كل ما في المخازن من الأطعمة والحبوب، ثم يقومون باحتكارها واستغلال حاجة الناس فيبيعونها بأضعاف سعرها.

فجاء إخوة يوسف من فلسطين؛ لكي يتزوَّدوا بالطعام والحبوب، فلمَّا دخلوا على يوسف عرفهم وهم لم يعرفونه، فقد اختلفت هيئته؛ لأنهم وضعوه في البئر وهو صغير، وجاؤوا عليه قد كَبُرَ وتغيَّرت ملامح وجهه، أمَّا يوسف فعرفهم لأنهم لم تتغيَّر هيئاتهم كثيرًا قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف:٥٨]، فسألهم عن عددهم لكي يعطي كلَّ واحدٍ منهم حِمْلَ بعير، فأخبروه أنَّ لهم أخًا من أبيهم لم يأت معهم، وطلبوا له حِمْلَ بعير، ولكنَّ يوسف خاف على أخيه أنْ يقتلوه كما حاولوا فعل ذلك معه، فقال لهم: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف:٥٩-٦٠].

فرغَّبهم في الرُّجوع إليه ليضمن منهم أنَّهم سيأتونه بأخيه قبل أنْ تسوِّل لهم أنفسهم قتله، ثمَّ حذَّرهم إذا لم يأتوا بأخيه، فإنَّه لن يعطيهم شيئًا من الطَّعام والحبوب، لأنَّه يعلم بحاجتهم للطَّعام، فقال إخوته: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ [يوسف:٦١]. ولكي يضمن يوسف عودتهم ردَّ لهم الثمن الذي اشتروا به الطَّعام، لأنَّه خشي أنَّهم لن يملكوا ثمنًا

ليشتروا به طعامًا مرَّةً أُخرى، فلا يعودوا إليه في هذه الحالة، فلذلك قال للذين يعملون معه: ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف:٦٢]. فبذل يوسف كل الأسباب التي يستطيع من خلالها حماية أخيه من كيد إخوتهم.

ثم رجع إخوة يوسف إلى أبيهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ فأخبروه وقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف:٦٣]. فوعدوا أباهم بحفظ بنيامين وردِّه إليه سالمًا، وأخبروه أنَّه إنْ لم يرسله معهم فلن يعطيهم العزيز شيئًا، فقال لهم أبوهم: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤]. فخاف يعقوب على بنيامين أن يفعلوا به كما فعلوا بيوسف، فتوجَّه إلى الله أنْ يحفظه وهو خير الحافظين، فلمَّا فتحوا أمتعتهم وجدوا بضاعتهم التي استبدلوا بها الطعام والحبوب قد ردَّها إليهم يوسف، فوجدوها فرصةً سانحةً لهم ليتزوَّدوا بالطعام والحبوب ويأخذوا بنيامين معهم ليزيدهم العزيز حِمْلَ بعير من الحبوب فقالوا: ﴿مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف:٦٥].

وهنا لم يجد يعقوبُ بُدًّا منْ إرسال بنيامين مع إخوته، ولكنَّه طلب منهم أنْ يعطوه العهود والمواثيق أنْ يُعيدوه إليه سالمًا فقال: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف:٦٦]. فأعطوه العهود والمواثيق على ذلك فقال لهم: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾

[يوسف:٦٦]. وحينها وافق يعقوب على إرسال بنيامين مع إخوته، ثمَّ أوْصاهم إذا دخلوا المدينة أنْ يدخلوا من أبوابٍ متفرِّقة؛ لأنَّه خشي عليهم من العين والحسد لكثرتهم فقال: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٦٧-٦٨].

وعندما وصل إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مصر وجاؤوا عنده أخذ أخاه بنيامين معه وقال له: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [يوسف:٦٩]. لأنَّهم كانوا يُسيئون معاملته، وأخبره بأنَّه سوف يُبقيه معه حمايةً له من كيد إخوته، فلمَّا جهَّز إخوته وأعطى كلَّ واحدٍ منهم حِمْل بعير، جعل الوعاء الذي يكيل به مع المتاع الذي يحمله بعير أخيه بنيامين، ثم أمر يوسف أحد فتيانه أن يصيح في القافلة بأنَّ منهم أحدٌ سارق قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف:٧٠]، وحين سَمِعَ إخوة يوسف المُنادي عادوا إليهم مسرعين فقالوا: ﴿مَاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ [يوسف:٧١] فقالوا: ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ [يوسف:٧٢]. أي فمن وجده فله حِمْلُ بعيرٍ آخر، فقال إخوة يوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف:٧٣]. فقال فتيان يوسف: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [يوسف:٧٤]؟ أي إنْ وجدنا المفقود معكم فما جزاء مَنْ يكون مع متاعه؟ فقال إخوة يوسف:

﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يوسف:٧٥]. أيْ مَنْ وُجِدَ هذا الشيء الذي تفقدونه مع متاعه فإنَّه يكون مُلْكًا لصاحب هذا الشيء المفقود، فحينها بدأ المُنادي بالتفتيش في رِحَال إخوة يوسف قبل بنيامين، ثم استخرج الوعاء من رَحْلِ بنيامين، وحينها حَصَلَ مُراد يوسف بأنْ يبقى أخاه معه ليحميه من كيد إخوته قال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٧٦]، وحينها قال إخوة يوسف: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف:٧٧]. فهم يقصدون يوسف لأنَّ يوسف وبنيامين إخوة أشقاء من أمٍّ وأب، وأمَّا إخوتهم فهم إخوةٌ لهم من أبيهم، فسكت يوسف ولم يقل شيئا ليَرُدَّ عليهم قال تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ﴾ [يوسف:٧٧]، ثم قال في نفسه: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:٧٧]. أيْ أنَّ ما صَدَرَ منكم بحقِّ يوسف وأذيَّتِكُم لبنيامين أشدُّ شرًّا والله أعلم بحالكم.

وبعدها جاؤوا ليوسف وهو العزيز يطلبون منه أنْ يَرُدَّ بنيامين ويأخذ أحدهم بَدَلًا منه، وذلك لأنَّ أَبَاهُ لا يستطيع فراقه فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٧٨]. فقال لهم يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٧٩]. أيْ لو أَخَذْنا أحدًا منكم مكانه فسوف نكون ظالمين بهذه الصورة، ونعوذ بالله من ذلك، فلمَّا يأسُوا من عودة بنيامين

معهم أخذوا يتناجون فيما بينهم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف:٨٠]، فقال أَكْبرهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنَ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف:٨٠-٨٢]. فذكَّر إخوته بأنَّهم قد أعطوا أباهم العهود والمواثيق بأنْ يأتوا ببنيامين، وذكَّرهم بفعلهم بيوسف، فقرَّرَ أن يبْقى في مصر حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله بما يشاء، وأَمَرَ إخوته أنْ يعودوا إلى أبيهم ويخبروه بما حَصَلَ لهم، وقد عَلِموا أنَّ أباهم لنْ يُصدِّقهم، وفي هذه الحالة لديهم شهودٌ بما حَصَلَ في مصر وفي القافلة التي كانوا معها، فيسألهم ليعلم أنَّ أبناءه صادقين فيما أخبروه.

وعندما رجع إخوة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من مصر إلى أبيهم يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في فلسطين وليس معهم بنيامين، فقالوا لأبيهم كما أمرهم أخوهم الكبير: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف:٨١-٨٢]. فأخبروه بما حصل لهم، ولعلمهم أنَّه لن يُصدِّقُهُم، فطلبوا منه أنْ يسأل الناس الذين كانوا معهم في مصر وفي القافلة التي كانوا معها فقال يعقوب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف:٨٣]. فلم يُصدِّقْهُم أبوهم، ثم صبر ودعا الله أنْ يجمع شمله بأبنائه جميعا يوسف وبنيامين

وأخوهم الكبير الذي بقي في مصر، ثم انصرف عن أبنائه وتذكَّر يوسف فبكى من الحُزن حتى عميت عيناه قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤]، فقال له أبنائه: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥]. لأنَّهم كانوا يظنُّون أنَّ يوسف لن يعود، وظنُّوا أنَّه من شدَّة حبِّ أبيه له أنَّه سيتذكَّرُهُ حتى يهلك من شدَّةِ الحُزْن عليه فقال لهم أبوهم: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٨٦].

فلم يشكو يعقوب حاله إلى أبنائه، بل شكى حُزنه إلى الله وفوَّض أمره إليه فهو العليم بحاله، ثم قال يعقوب لأبنائه: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]. فأمر أبناءه بعدم البقاء عنده والذهاب إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه لعلهم يجدونهم فيأتون بهم إليه.

فعاد إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه بنيامين كما أمرهم أبوهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجاؤوا إلى مصر ببضاعة قليلة الثمن ولا يستطيعون أخذ الكيل كاملا مقابل تلك البضاعة الرَّخيصة، فوصلوا إلى حالٍ من الفقر والشِّدَّة، فعندما وصلوا إلى مصر ذهبوا إلى العزيز، فلمَّا دخلوا عليه قالوا له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف:٨٨]. فطلبوا الصَّدقة من العزيز، فلمَّا رآهم يوسف قد وصلوا إلى هذه الحالة رحمهم

وقال لهم: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف:٨٩]؟ فمن كرم يوسف أنَّه يعتذر لإخوته لِمَا حصل منهم بأنَّهم فعلوا ما فعلوا وهم في حالة من الجهل، فقالوا له: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠]؟ وحينها أخبرهم يوسف فقال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠]. فاعترف بمنَّة الله عليه وفضله، فقال إخوته: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٩١]. أي إنَّ الله قد اختارك ورفع منزلتك، ثم اعترفوا بخطئهم الذي اقترفوه بحق يوسف وأخيه بنيامين، فلمَّا اعترفوا بذنبهم سامحهم يوسف وعفا عنهم فقال: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢]. ثم سألهم عن أبيه، فأخبروه بالحالة التي وصل إليها وأنَّه قد بكى من الحزن عليه حتى عميت عيناه، فقال يوسف لإخوته: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [يوسف:٩٣]. ليجتمع شملهم بعد الفراق، ويذهب حزن أبيهم بفقد يوسف وأخيه.

ذهب إخوة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من عنده متَّجهين إلى القافلة التي سينطلقون معها من مصر إلى فلسطين ومعهم قميصه، ليأتوا بهذه البشارة إلى أبيهم يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الذي بكى من الحزن على يوسف حتى عميت عيناه، وعندما بدأت القافلة بالتحرُّك وجد يعقوب ريح يوسف فقال يعقوب: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف:٩٤]. فقال له أهله وهم يظنون أنَّ يوسف لن يعود: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يوسف:٩٥].

وعندما جاء ابنه بالبشارة، ألقى قميص يوسف على وجه أبيه فعاد إلى يعقوبَ بصرُهُ، وذهب عنه حزنُه بهذه البشارة قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٦]، ثم قال يعقوب: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٩٦].

فهذه ثمرة قوة إيمان يعقوب وحسن ظنِّه بالله، فقال إخوة يوسف مستغلِّين لهذه اللحظة التي فرح فيها أبوهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٩٧]. فطلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم ويسامحهم عمَّا بَدَرَ منهم، فقال يعقوب وهو النبي الكريم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف:٩٨]. فوعد أبناءه أن يستغفر لهم، لعلَّ الله أن يغفر لهم، إنه هو الغفور الرحيم.

وعندما انطلق يعقوب وأهله من فلسطين إلى مصر، دخلوا على يوسف فقرَّب أبويه منه وقال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف:٩٩]. ثم سجد ليوسف أبواه وإخوته سجود تكريم، فقال يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠]. ثم توجَّه يوسف يدعو الله ويثني عليه فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

العِبْرة:

١- الرؤيا الصالحة هي بشارة من الله للعبد، فإذا رآها فلا يُخبر بها إلَّا من يُحب ويعلم أنَّه لن يحسده، لقوله ﷺ: «الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنْ الله فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ» [رواه البخاري]، ولذلك نهى يعقوب ابنه يوسف أنْ يُخبر إخوته بما رآه في المنام لأنَّ رؤياه مُبَشِّرَة، ولأنَّ يعقوب خاف على ابنه من حَسَدِ إخوته له.

٢- الرِّسالة والنبوَّة اصطفاء واختيار من الله، فليست مرتبةً يَصِلُ إليها العبد بعد عملٍ مُعَيَّن، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج:٧٥]، ولذلك فقد أخبر الله تعالى أنَّه اختار يوسف واصطفاه للنبوَّة فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف:٦]، أي يصطفيك ويختارك للنبوَّة والرِّسالة.

٣- يجب على الآباء أنْ يعدلوا بين أبنائهم في التعامل، فما حدث بين يوسف وإخوته كان بسبب تفضيل يعقوب ليوسف وأخيه بنيامين على إخوتهم قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [يوسف:٨]، ولذلك كان العدل بين الأولاد واجبا، فقد جاء عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أباه أعطاه غلامًا، فقالت أمه: لا أرضى حتى تشهد رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فذهب بشير بن سعد إلى النبي ﷺ وأخبره بما فعل، فقال: «أَكُلَّ ولدك أعطيته مثل ما أعطيت النعمان؟»، فقال: لا. فقال الرسول ﷺ: «اتقوا الله، واعدلوا بين أولادكم» [رواه البخاري].

٤- الحسد من طبيعة النَّفس البشريَّة، ولذلك حَسَدَ يوسفَ إخوتُهُ بسبب تفضيل والده له، ولذلك ينبغي على الإنسان إذا كان لديه نعمه ويخشى أنْ يحسده الناس عليها، فلا يُظهرها لئلا يكون عُرضةً للحسد.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن الحسد فقال: «**لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا**» [رواه البخاري].

٥- بدا واضحًا من كلام إخوة يوسف عندما رجعوا إلى أبيهم أنهم كاذبين فيما قالوه لأبيهم عن يوسف عندما وضعوه في البئر، فقد قالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف:١٧]. أي لن تصدِّقنا حتى ولو كنَّا صادقين، فالمفهوم من كلامهم أنهم كاذبين.

ولذلك من كان لديه خبيئة شر لابُدَّ أن يظهر منه ذلك في كلامه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [محمد:٣٠].

٦- أنَّ الله حافظٌ رُسُله، ولذلك أوحى الله ليوسف عندما وضعوه إخوته في البئر فقال له: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [يوسف:١٥]. وهذا فيه طمأنينة لقلب يوسف بأنَّ الله سيُنْجيه ممَّا هو فيه، وبشارةً له بأنَّه سيظهر على إخوته ويكون أرفع منهم مقامًا.

٧- إذا تخلَّى الناس عنك فلا تيأس، فقد يبعث الله لك من ينفعك بدون أن يعلم، وانظر إلى يوسف عندما تركه إخوته في البئر وذهبوا سيَّر الله له القافلة لتخرجه من البئر.

٨- قد تكون الأحداث في ظاهرها شر، ولكن في باطنها الخير الكثير الذي لا يعلم عنه الإنسان في حينه، فيوسُف بِيع بثمنٍ بخس ولكنه لم يعلم أنَّ هذا هو بداية تمكين الله له في الأرض.

٩- إرادة الله فوق إرادة البشر، فإخوة يوسف لم يريدوا الخير ليوسف عندما وضعوه في البئر، ولكنَّ الله حفظه وأراد أنْ يُمكِّن له في الأرض ويجعله نبيًّا رسولًا، فكانت إرادة الله هي الغالبة قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

١٠- إذا كان الإنسان مُحسنًا فإن الله يُقابل إحسانه بالإحسان، ولذلك قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، ولذلك لمَّا كان يوسف مُحسنًا حفظه الله ومكَّنه في الأرض وأنجاه من كيد إخوته ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢].

١١- جاء عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**سبعة يُظِلُّهُمُ الله في ظِلِّهِ يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ**» وذكر منهم: «**ورجل دَعَتْهُ امرأة ذات منصب وجمال فقال: إِنِّي أَخاف الله**» [رواه البخاري].

وذلك لأنَّه تعرَّض للفتنة، فقدَّم خوف الله مع قوة الدَّاعي لفعل الحرام، فجزاه الله نعيم الدنيا والآخرة.

ولذلك جعل الله قصة يوسف مثالًا لكل من وقع في مثل هذه الفتنة، وذلك أنَّ يوسف قدَّم خوف الله فعفَّ عن الحرام مع قوة الدَّاعي إليه، فرفع الله ذكره وجعله قدوةً للعالمين.

١٢- إذا أراد الإنسان أنْ يعصِمَهُ الله من فتن الشَّهوات والشُّبُهات فيجب عليه أن يقوِّي إيمانه ويقينه بالله في قلبه، وحينها يعصِمُهُ الله من فتن الشَّهوات والشُّبُهات قال تعالى عن يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، فالذي مَنَعَ يوسف من الوقوع في الفتنة هو البرهان الذي أعطاه الله في قلبه من الإيمان واليقين.

١٣- إذا أراد الإنسان أنْ يكون إيمانه ويقينه بالله قويًّا، فعليه بذل الأسباب في طَلَبِ ذلك، فيدعو الله أنْ يهديه، ويُكثِر من العمل الصَّالح لأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية كما يقول العلماء، فإذا بَذَلَ هذه الأسباب هَدَاهُ الله ووفَّقه لفعل الخيرات واجتناب المعاصي والمُنكرات فقد قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠].

١٤- الله تعالى هو العدل وقد أَمَرَ بالعدْل وحرَّم الظُّلم، وعند وقوع الخطأ والجريمة فمن الظُّلم التسرُّع في اتِّهام النَّاس دون بيِّنةٍ ودليل، فيجب عدم التسرُّع في إلقاء التُّهَم على الناس حتى تظهر الأدلَّة على الفاعل.

ومن عدل الله أنَّه من يقع في الجريمَة فلابدَّ أنْ يترك أثرًا يدلُّ عليه، ولذلك امرأة العزيز اتَّهمت يوسف، ولكن الدَّليل على كَذِبها كان القميص عندما شقَّته وهو ذاهبٌ عنها، فتبيَّن أنها كاذِبَةٌ في دعواها عندما ادَّعت أنَّ يوسف هو الذي أراد بها السوء.

١٥- ليس كلُّ كلامٍ يُقال يؤخَذ على ظاهره، بل قد يكون وراءه مقاصِدَ أُخرى، فالنِّسوة اللاتي لُمْنَ امرأة العزيز على ما بَدَرَ منها تجاه يوسف لم يكن قَصْدُهُنَّ مجرَّد اللَّوْم لامرأة العزيز، وذمِّ فعلتها، بل أرادوا منها إذا علمت بلومهنَّ أن تجعلهنَّ يريْنَ يوسف الذي جعل منها في مَكَانتها وقدْرِها تراود فتاها عن نفسه، وذلك لأنَّ مثل هذا الأمر نادر الحدوث، فأخذهم الفضول إلى معرفة السبب على ذلك.

١٦- إذا أجمع الناس على تزيين المعصية، فإنَّ هذا لا يجعلها مباحا فعلها، فقد أجْمَعَ النسوة على رأي امرأة العزيز، ولكنَّ يوسف دعا الله أنْ يصرفه عنه؛ لأنَّه منكر ومعصيةٌ عظيمة، وأنَّ الاستجابة لما زيَّنه له النسوة جهل فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣].

١٧- تقديم اللذَّة العاجلة يورِث النَّدامة، ولذلك اختار يوسف السِّجن وكان أحبُّ إليه من فعل المعصية، واختار رضا الله فصرف الله عنه كيد النسوة قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف:٣٤].

١٨- إذا علم الله من الإنسان الصَّدق والإخلاص عصَمهُ وحفظه، ولذلك لمَّا استجاب الله دعاء يوسف وصرف عنه كيد النسوة قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف:٣٤]، فإنَّه -سبحانه- علم من يوسف الصِّدق والإخلاص والإيمان فَصَرَفَ عنه المعصية.

١٩- وجوب الإكثار من الدُّعاء ليحفظ الله الإنسان من فِتن الشَّهوات والشُّبُهات، ولذلك لَمَّا شَعُرَ يوسف بالضَّعْف أمام ما اجتمع عليه رأي النسوة، لجأ إلى الله ليعصمه فاستجاب الله له قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف:٣٣-٣٤].

٢٠- العفَّة عن الحرام بعد أن تتهيَّأ أسبابه يورث الإنسان محبَّة الله له والذِّكر الجميل في الدنيا، فهذا يوسف لَمَّا عفَّ عن الحرام جعل الله قصَّته قرآنًا يُتْلى إلى يوم القيامة، وأثنى الله عليه فقال: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، وجعله الله قدوَةً للعالمين.

٢١- المؤمن الصَّادق يظْهر صِدْقُهُ على وجهه، فيقبله الناس بِمُجرَّدِ رؤيته، ولذلك لَمَّا رأى الفتيان يوسف وَثِقا به وأحسنا به الظَّن، فقالوا له عندما طَلَبَا منه تأويل رؤياهما: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦]. مع أنَّهم لم يكونوا يعرفونه قبل ذلك، وذلك لأنَّ الله إذا أحبَّ عبدًا وَضَعَ له القبول في الأرض قال ﷺ: «**إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبِبْه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يُوضَع له القبول في الأرض**» [رواه البخاري].

٢٢- مُهمَّة الرُّسُل هي الدَّعوة إلى الله، ولذلك بدأ يوسف بدعوة الفَتيَان قبل تأويل رؤياهما.

٢٣- لا يجوز الكَذِب في رواية الرؤى والمنامات وهذا من أعظم أنواع الكذب فقد قال ﷺ: «إِنَّ مِن أَفْرَى الفِرَى أَنْ يُرِيَ عَيْنَيْهِ ما لَمْ تَرَ» [رواه البخاري]، وقال ﷺ: «من تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لم يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بين شَعِيرَتَيْن ولن يفعل» [رواه البخاري]. أي يعقد بين حبتي شعير ولن يمكنه ذلك، فحبُّ الشَّعير قاسي ولا يمكن لفُّهُ، وهذا فيه تعذيب له على كذبه في المنام.

ولذلك عندما أوَّل يوسف رؤيا الغلامَيْن في السِّجن وكان تأويل رؤيا الثاني بأنَّه سيقتل ويُصْلَب، فكأنَّ الثاني أراد أنْ يغيِّر في رؤياه ويحرِّف فيها لعله يختلف التأويل، فحينها قطع عليه الطريق يوسف في هذا الأمر وقال: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١]، فلم يسمح له بإعادة رواية الرؤيا؛ لأنه سيكذب في هذه المرَّة، لعل التأويل يختلف، وهذا فيه فائدتان:

فالأولى: أنَّه لا يجوز الكذب في الرؤى والمنامات، والثانية: أنَّه لا ينبغي الجزم بوقوع التأويل كما ذكره مفسِّر الرؤى، وذلك لأن ما يحدث في المستقبل من علم الغيب، وهذا لا يعلمه إلَّا الله تعالى، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا﴾ [يوسف:٤٢]، فلم يجزم يوسف للغلامَيْن بوقوع تأويله لرؤاهما كما أوَّلها لهم.

٢٤- الرؤيا في المنام ثلاثة أنواع كما بيَّن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «الرؤيا ثلاثة: فبشرى من الله، وحديث النفس، وتخويف من الشيطان، فإذا رأى أحدكم رؤيا تُعْجِبُه: فَلْيَقُصَّهَا إِنْ شاء، وإذا رأى شيئا يكرهه: فلا يقُصَّهُ على أحد، ولْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ» [رواه أحمد]،

فإن كانت رؤيا صالحة فيستأنس بها ولا يُخبر بها إلَّا من يحب لئلَّا يتعرَّض للحسد، ويعبِّرها إنْ شاء لقوله ﷺ: «**الرُّؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدِّث به إلَّا من يُحِب**» [رواه البخاري].

وإذا كانت من الشَّيطان فنَهَى ﷺ مَنْ رأى رؤيا مُفْزِعَة أنْ يَقُصَّها، فقد جاء عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنَّهُ قال لأَعْرَابِيّ جاءه، فقال: إنِّي حَلَمْتُ أَنَّ رأسي قُطِعَ، فأنا أَتَّبِعُهُ. فَزَجَرَهُ النبي ﷺ، وقال: «**لا تُخْبِرْ بِتَلَعُّبِ الشَّيْطَانِ بك في المنام**» [رواه مسلم].

ولذلك قال ﷺ في الرؤيا والحُلْم: «**الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان؟ فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب، وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها ومن شر الشيطان، وليتفل ثلاثا، ولا يحدث بها أحدًا فإنها لن تضره**» [رواه البخاري].

وأمَّا حديث النفس وهو أضغاث الأحلام فهو ما يُحدِّث الإنسان نفسه قبل النَّوم، ثم ينام فيرى ما كان يُحدِّث به نفسه، وهذه الرؤى لا معنى لها سوى أنَّها حديث النفس.

٢٥- يظهر فضل الإنسان إذا أعطاه الله علمًا لا يكون عند غيره، ولذلك ظهر فضل يوسف بالعلم عندما عَجِزَ أهل العلم من حول الملك عن تأويل الرؤيا، ولذلك قال الملك: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾ [يوسف:٥٤]. أي يوسف فكان هذا منطلق تمكينه في الأرض.

٢٦- فضيلة الصِّدق عند التعامل مع الناس، ولذلك لمَّا كان يوسف صادقًا مع الفَتيَان اللَّذَيْن عبَّر لهما رؤياهما في السجن، فكانت النتيجة أنَّ الفتى عرف عن يوسف الصِّدق، ولذلك عندما ناداه ليُعبِّر رؤيا الملك قال له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ [يوسف:٤٦].

وهذا اللفظ هو صيغة مبالغة أي كثير الصِّدق، ولذلك إذا كان الإنسان كثير الصِّدق فإنَّه يكون صدِّيقًا لقوله ﷺ: «**عليكم بالصِّدق، فإنَّ الصِّدق يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة، وما يزال الرَّجل يصدق، ويتحرَّى الصِّدق حتى يُكْتَب عند الله صدِّيقًا. وإيَّاكم والكذب، فإنَّ الكذب يهدي إلى الفُجُور، وإنَّ الفُجُور يهدي إلى النَّار، وما يزال الرَّجل يكذب، ويتحرَّى الكذب حتى يُكْتَب عند الله كذَّابًا**» [رواه مسلم].

٢٧- إذا أراد الله أمرًا هيأ له الأسباب، فلما أراد الله تعالى تمكين يوسف في الأرض هيأ الأسباب لذلك، فلما رأى الملك تلك الرؤيا ولم يستطع أحد تعبيرها سوى يوسف، ظهر فضل يوسف وعلمه فكان ذلك سببا لتمكينه في الأرض.

٢٨- المتَّهم بريء حتى تثبت إدانته بالدليل القاطع أو بالاعتراف، ولذلك يجب على الناس حين سماع الخبر عن شخص بأنه ارتكب جرمًا بألَّا يستعجلوا بتناقل الخبر وسرعة إدانة لهذا الشخص حتى تظهر الأدلَّة، ولذلك تناقل الناس الخبر بأنَّ يوسف هو مَنْ راود امرأة العزيز دون دليل وأدَّى ذلك إلى سَجْنِ يوسف ظُلمًا، ولمَّا حان موعد خروج يوسف من السجن

رفض ذلك حتى تثبت براءته، لأنَّه لو خرج مباشرة ولم يعلم الناس ببراءته لساءت سمعته، وكان لذلك الأمر تأثيرًا على حياته وعلاقاته بالناس، ولذلك كان من حِكمة يوسف وفطانته أنّه لم يستعجل الخروج من السِّجن حتى يظهر الحق وتظهر براءته ممَّا اتُّهِم به ظلمًا وبهتانًا، ولذلك لما جاءرسول الملك إلى يوسف ليُخرجه من السجن، قال له يوسف: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٥٠]، وذلك لكي يتحقق الملك من الأمر بنفسه ويعلم براءة يوسف ممَّا اتُّهِمَ به ظُلمًا وزورًا، ومن ثمَّ تظهر براءة يوسف للناس، لأنَّه قد شاع عندهم أنَّه هو الذي أراد السوء بامرأة العزيز.

٢٩- فضيلة مرتبة الإحسان، حيث أنَّ الله تعالى أنجى يوسف من جميع الكُرُبات التي مرَّ بها، وحين مكَّنه الله في الأرض قال: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦].

٣٠- ابتلى الله يوسف قبل أن يمكنه في الأرض، وذلك لأنَّ الابتلاء قبل التمكين سنة إلهيَّة كونية قدرية قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣]، ولمَّا ابتلى الله يوسف ظهر منه الصِّدق والإيمان والثبات على أمر الله، فاستحق المنزلة العالية في الدنيا والآخرة.

٣١- يجب على من عَلِمَ من نفسه القوَّة والأمانة على أيِّ ولاية للناس وأنَّه سيقوم بحقِّها خير قيام فليطلبها، فالقوَّة تكون لتحقيق العدل بين

الناس، والأمانة تكون بأداء الحقوق للناس، ولذلك يوسف عندما علم من نفسه أنه يستطيع الجمع بين الأمرين طلب الولاية من الملك على خزائن مصر فقال للملك: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٥٥].

وقد قام بها يوسف خير قيام، فكان يُعطي كل فرد حِمْلُ بعير لتفادي الاحتكار في السوق؛ لئلَّا يأتيه من في نفسه جشع وطمع فيستغل حاجة الناس فيشتري من العزيز كميات كبيرة من الطعام، ثم يبيعها على الناس بأغلى الأسعار، ومن أمانته وعدله أنَّه لم يستغل حاجة الناس فيضاعف عليهم السعر، فكان بحكمته وأمانته وعدله تفادى مشكلة اقتصاديَّةً كُبْرى قد يكون لها ضرر كبير على حياة الناس وأمنهم ومعاشهم.

٣٢- الثِّقَة إذا فُقِدَت فإنَّها لا تعود، ولذلك يوسف فقد الثِّقة في إخوته لما وضعوه في البئر، فلم يأمنهم على أخيه بعد ذلك، فقام ببذل كلِّ الأسباب التي تجعلهم يأتونه بأخيه ليحميه من شرِّهم وكيدهم، ويعقوب فقد الثِّقة في أبنائه عندما أخذوا يوسف ولم يعيدوه له، فلذلك لم يسمح بذهاب بنيامين مع إخوته إلَّا لسبب واحد وهو أنَّه ليس أمامه بُدٌّ من إرساله، فعزيز مِصر لن يبيع لهم الحبوب والطعام بدون إحضار بنيامين لأنَّ يوسف قال لإخوته: ﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾ [يوسف:٥٩-٦٠]. وهم بحاجة ماسَّةٍ للطَّعام والحبوب بسبب الجدب الذي يعيشونه، فلذلك سمح لبنيامين بالذهاب مع إخوته مُكْرهًا.

٣٣- العين حق ولذلك قال ﷺ: «**العَيْنُ حق، ولو كان شيء سابَقَ القدر سبقته العَيْن، وإذا اسْتُغْسِلْتُم فاغتَسِلوا**» [رواه مسلم]، ولذلك خاف يعقوب على أبنائه من العين لكثرتهم، فأمرهم ألَّا يدخلوا من باب واحد بل يدخلوا من أبواب متفرقة، فقال لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾ [يوسف:٦٧].

٣٤- تجوز التورية والتحايل على الشخص إذا كان هناك دفع لضرر أو جلب منفعة، ولذلك تحايل يوسف على إخوته ليحمي أخاه من شرِّهم، فعندما تحايل يوسف على إخوته لم يكذب؛ لأنَّ الكذب ليس من خُلُق الأنبياء فقال لهم: ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٢]. ولم يقل: سرقتم صواع الملك؛ لأنهم لم يسرقونه، فلم يكذب في ذلك، وهذه تُسمَّى التورية، ومن تحايله عليهم أنّه بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه لئلَّا يشكَّ أحدٌ بهذه الحيلة، ولمشروعية هذا الأمر، فإنَّ الله وفَّق يوسف لهذه الحيلة فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف:٧٦].

٣٥- من الممكن أنْ تعرف صدق الإنسان أو كذبه من خلال كلامه، فإخوة يوسف عندما وضعوا يوسف في البئر كذبوا على أبيهم وزعموا أنَّ الذئب أَكَلَ يوسف ثمَّ قالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف:١٧]. وذلك لأنهم كاذبون فيما زعموا، فكان كذبهم واضحٌ من خلال كلامهم.

وعندما كانوا صادقين بأنَّهم لم يؤذوا بنيامين اختلف قولهم فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف:٨٢]. وذلك لأنَّهم فعلًا صادقين هنا، فلم يؤذوا بنيامين.

فيجب أن يتنبَّه الإنسان لذلك إذا أراد أنْ يعرف حقيقةً ما، قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠]، أيْ من خلال القول تعرف حقيقة الإنسان وما يُخفيه.

٣٦- الإنسان إذا عُرِف عنه الكذب فإنَّه لا يُصَدَّق بعد ذلك، وبهذا تتبيَّن خطورة الكذب، وأنَّه من أقبح الصفات التي يتَّصِف بها الإنسان، لذلك يعقوب لم يُصدِّق أبناءه برغم الشهود الذين استشهدوا بهم على صدق كلامهم فعندما قال أبناء يعقوب لأبيهم: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف:٨٢]. قال لهم أبوهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف:٨٣].

٣٧- الأب صاحب العقل السَّوي رحيم بجميع أبنائه، شفيقٌ عليهم حتى وإن حَصَلَ منهم الخطأ، فيعقوب مع ما حَصَلَ من أبنائه بإبعاد يوسف عنه، لم يزل رحيمًا بابنه الكبير الذي كان معهم في فعلهم عندما وضعوا يوسف في البئر، ولذلك دعا الله أنْ يَرُدَّ له جميع أبنائه الغائبين عنه وهم يوسف وبنيامين وابنه الكبير الذي بقي في مصر فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف:٨٣].

٣٨- إذا حَصَلَ للإنسان مصيبةٌ عظيمةٌ في حياته، فأيُّ مُصيبةٍ بعدها تُذَكِّرُه بها، ولهذا تذكَّر يعقوب ابنه يوسف عندما فقد ابنه بنيامين فبكى حتى عميت عيناه قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤].

فكان علاج الحُزْن على المصيبة هو الصَّبْر، وقد بشَّر الله الصابرين بالثناء عليهم والرَّحمة وأنَّهم قد اهتدوا للطريق الصحيح الموصل لمرضاة الله فقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]. ورتَّب الله على الصبر الأجر العظيم، وذلك لمشقَّته وصعوبته على نفس الإنسان فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

٣٩- عدم اليأس من رحمة الله مهما حصل، ولهذا لم ييأس يعقوب من عودة يوسف فقال لأبنائه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]. وهذا من قوَّة إيمانه بالله أنَّه لم ييأس حتى من عودة يوسف، فكان الرجاء عنده أقوى من اليأس، ولا يكون هذا إلَّا عند مَنْ كان إيمانه بالله قويًّا.

٤٠- العفو عند المقدرة من شيم الكِرام، ولا يقدر على هذا الخُلُق الكريم إلَّا الكرام من الناس، ويوسف نبي، والأنبياء هم أكرم الناس فهم صفوة الخلق وأفضلهم، ولذلك عندما اعترف إخوة يوسف أمامه بخطئهم عفا عنهم وهو قادرٌ على معاقبتهم، فهو أعلى منهم منزلة وهم في حالة من

الفقر والشِّدَّة فقال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢]، ولمشقَّة هذا الأمر على النَّفس عند فعله جعل الله أجر العافين عن الناس عليه وحده فقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

٤١- إذا كان الإنسان في شدَّةٍ وكرب، فعليه بأمرين لكي يُفرِّج الله عنه وهي: التقوى، والصبر.

ولذلك قال يوسف لإخوته: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠].

٤٢- يجب على الإنسان أنْ يحسن ظنَّه بالله، لأن الله سيعطيك على حسب ظنك به لقوله ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظَنِّ عبدي بي**» [رواه مسلم]، ولذلك فإنّ يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أحسن ظنَّه بالله، ولم ييأس من عودة يوسف فقد قال يعقوب لأبنائه: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]. فكان الجزاء من الله أنْ أعاد إليه يوسف، وحينها قال يعقوب لأبنائه يذكر لهم منَّة الله عليه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٩٦].

٤٣- العفو والصَّفح من شيم الكرام، فإذا جاءك المذنب نادمًا معتذرًا، فالأولى مسامحته والعفو عنه، ولذلك لما جاء إخوة يوسف إلى أبيهم نادمين معتذرين طالبين منه أن يستغفر لهم، فعفا عنهم مباشرة واستغفر لهم قال

تعالى: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف:٩٧-٩٨].

٤٤- من كمال البر بالوالدين عدم التعالي عليهم عند الحصول على مال أو منصب، وهذا يوسف من كمال بره بوالديه أنَّه رفعهم معه على العرش ولم يُجلسهم أمامه كبقية الناس، وهذا من بره بوالديه وإحسانه إليهم، فلم ينسى فضلهم وإحسانهم له قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠].

٤٥- السجود لا يجوز إلَّا لله تعالى وحده، وأمَّا سجود والدي يوسف وإخوته له فهو سجود تكريم، وهذا كما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم سجود تكريم.

٤٦- إذا أنعم الله تعالى على إنسان بأيِّ نعمه فليعلم علم اليقين بأنَّها فضلٌ من الله ومنَّة قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، فإذا علم ذلك فإنه حريٌّ به أن يشكر الله على هذه النعمة، وانظر إلى هَدْي الأنبياء في ذلك، فهذا يوسف عندما أنعم الله عليه بالنبوَّة والرِّسالة والمنصب واجتماع أهله عنده بعد فُرقة أثنى على الله بالثناء الجميل؛ لأنَّه يعلم علم اليقين أنَّ هذه النِّعم فضل من الله وحده، ودعا الله أن يثبته على الدين حتى يلقاه فقال: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

٤٧- من كمال التكرُّم بالعفو والصَّفح عن المُخطئ عدم معاتبته، ولذلك يوسف لم يُعاتب إخوته بعد لقائهم؛ لأنّ ذلك سوف يُعكِّر صفو اللقاء بعد تلك السنين الشديدة من البعد والفراق، ولذلك قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠]. ولم يذكر ظلم إخوته له ومحاولة قتله وإبعاده عن أبيه.

n

قصة أيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ

n

كان أيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في نعم كثيرة، فعنده المال والزوجة والولد، فأراد الله أنْ يبتليه ليكون قدوة للعالمين في الصبر، وقد لبث في بلائه ومعاناته من مرضه مدة ثماني عشرة سنة، وقد ابتلاه الله عَزَّوَجَلَّ فتسلَّط عليه الشيطان حتى أصابه المرض في جسده، وصبر على هذا المرض حتى أتعبه وعذّبه، فشكى إلى الله حاله بقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص:٤١].

وقد جاء عن رسول الله ﷺ: «**إن نبي الله أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين، كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال: أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: من ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله، فيكشف ما به، فلما راحا إليه، لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن الله يعلم أني كنت أمُرُّ على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله عَزَّوَجَلَّ، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما، كراهية أن يذكرا الله إلا في حق. قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحى الله تعالى إلى أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته، فتلقته تنظر، فأقبل عليها، قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان. فلما رأته**

قالت: أي بارك الله فيك! هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟. فوالله على ذلك ما رأيت رجلًا أشبه به منك، إذ كان صحيحًا. قال: فإني أنا هو. قال: وكان له أندران: أندر للقمح، وأندر للشعير -الأندر: البيدر- **فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح، أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض»** [رواه البزار].

وقال ﷺ: «**بينما أيوب يغتسل عريانًا، خرَّ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثو في ثوبه، فناداه ربه، يا أيوب! ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى بي عن بركتك**» [رواه البخاري].

وقال تعالى حكايةً عن أيوب: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣]، فأمره الله أن يضرب برجله الأرض، ففعل فأخرج الله ماءً من تحت قدمه وأمره أن يشرب منه ويغتسل قال تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص:٤٢]، فشفاه الله من مرضه قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء:٨٤]، وكان أبناؤه قد ماتوا فرزقه الله بالذُّرِّيَّة قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٤٣]، وكان في مرضه قد غَضِب من زوجته على أمر من الأمور، فأقسم أن يضربها مئة سوط إذا شفاه الله، فأمره الله أن يأخذ مئة عود في يده ويضرب زوجته ضربة واحدة، فيكون قد برَّ بيمينه قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص:٤٤]، ثم امتدح الله أيوب لصبره فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤].

العِبْرة:

١- أنَّ الله يبتلي من عباده الأحب إليه، ولذلك جاء عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله ﷺ: أيُّ الناس أشد بلاءً؟ قال: **«الأنبياء، ثم الأمْثَلُ فالأمثل، يُبتلَى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّةٌ ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»** [رواه الترمذي].

٢- الصبر كما يُعرِّفه العلماء هو: حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكِّي والسَّخط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب.

وللصبر فضيلة عظيمة، فهذا أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صبر على الابتلاء الذي أصابه فأثنى الله عليه بالثناء الجميل، وشرَّفه الله بمقام العبوديَّة فقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ [ص:٤٢]، ثم لمَّا ختم الله قصَّته قال عنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤].

ولهذا فقد جعل الله للصبر أجرًا لا حدَّ له فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]. وقد أثنى الله على الصابرين وبشَّرهم بالهداية فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]، ومن فضائل الصبر أنَّ الله يحب الصابرين فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦].

٣- أنَّ الفرج من الله يأتيك من حيث لا تحتسب، ولهذا لمَّا اشتكى أيوب إلى الله حاله، أمره الله أن يضرب برجله، فأخرج الله له ماءً فيه الشفاء.

٤- حتى تحقَّق الصَّبر وتكون صابرًا محتسبًا لا تشكو لأحدٍ من البشر حالك، فقط يجب أن تشكو حالك لله، فإنَّ الشكوى للناس مذلَّة، والشكوى لله وإخلاص الدعاء والعبادة لله هي العزَّة للإنسان.

وهذا أيوب شكى حاله لله فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص:٤١]. وقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣]، فجاءه الشفاء والفرج من الله قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ [الأنبياء:٨٤].

٥- الذي صَبَر معك في ابتلائك، فيجب أن تُحسن إليه بعدما يأتيك الفرج من الله، ولذلك لمَّا أقسم أيوب أن يضرب زوجته مئة سوط عندما غضب منها في حال مرضه، أمره الله بعد شفائه أن يأخذ مئة عود في يده ويضربها ضربةً واحدة، وذلك لسببين:

الأول: لكيلا يحنث في يمينه.

الثاني: أنَّ حق هذه الزوجة الإكرام؛ لأنها صبرت مع زوجها في حال مرضه، فخفَّف الله عليها اليمين إلى ضربةً واحدة بمائة عود.

٦- أنَّه يجب على الناس مراعاة المريض، فإنَّه في مرضه يكون في حالٍ من الضَّعف وسرعة الغضب، ولهذا لمَّا غضب أيوب من زوجته أقسم أن

يضربها مئة سوط، فلذلك تجب مراعاة المريض فلا تُطيل عنده الزيارة، ولا تُكثر عنده من القيل والقال، ولا تُسْمِعُهُ ما يُحْزِنُه، ولا تُذَكِّره بما يضيِّق عليه خاطره، فإنَّ ذلك من الإحسان إليه في هذه الحالة.

n

قصة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ

n

أرسل الله تعالى رسوله يونس بن متَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه، فدعاهم إلى الله تعالى فلم يستجيبوا له، فغضب منهم وتوعَّدهم بالعذاب وخرج، وظنَّ أنَّ الله لن يُضيِّق عليه لخروجه دون أنْ يأذن له، وركب البحر مع قوم في سفينة حتى ثَقُلَت بهم السَّفينة، فأرادوا أن يُخفِّفوا من حمولتها، فاتفقوا أن يعملوا بينهم قُرْعَة، ومن يخرج سهمه يرمونه في البحر، فاقترعوا فخرج سهم يونس بن متَّى فرموه في البحر، فالتقمه الحوت وأمره الله ألَّا يهشم له عظمًا ولا يأكل له لحمًا، فأخذ يونس في بطن الحوت يدعو الله بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣]، فَرَحِمَه الله لأنه كان مُسبِّحًا في بطن الحوت، فأمَرَ الحوت أنْ يُخرجَهُ من بطنه ويلقيه على ساحل البحر، فألقاه الحوت على ساحل البحر، وكان في حالةٍ مِنْ الضَّعف والسَّقَم، فأنبت الله عليه شَجَرة اليقطين وتسمَّى (الدِّبَّاء) و(القَرَع) لكي تُغطِّيه حتى يُشْفَى ويستعيد قوَّته، ثم أرسله الله إلى قومه وكانوا أكثر من مئة ألف قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ

مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم:٤٨-٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات:١٣٩-١٤٨].

وأمَّا قوم يونس لمَّا أحسُّوا بالعذاب آمنوا جميعًا، فكَشفَ الله عنهم العذاب قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

العِبْرة:

١- الأنبياء هم أفضل البشر على الإطلاق؛ لأنَّ النبوَّة والرِّسالة ليست مرتبةً يَصِل إليها الإنسان بعد عملٍ معيَّن، بل هي اصطفاء واختيار من الله تعالى، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٧٥]، وقد اختار الله للنبوَّة والرِّسالة صفوة الخلق وأفضلهم، ولذلك قال تعالى في مَعرِضِ ذكر الأنبياء: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٧]، فلا يجوز لأي بشر أن يظن أنَّ هناك من هو أفضل من الأنبياء، ولذلك قال ﷺ: «**ما ينبغي لعبد أَنْ يقول أنا خير مِنْ يونس بن مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**من قال أنا خير من يونس بن متّى فقد كذب**» [رواه البخاري].

٢- إذا وقع الإنسان في كرب وأُقفلت كل الأبواب فإنَّ باب الله -سبحانه- لا يزال مُشْرعًا، فيجب على الإنسان في حال الكرب أن يدعو الله ليُفرِّج عليه كُربته، ولذلك عندما كان يونس في بطن الحوت أخذ يناجي ربه بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فاستجاب الله له وأخرجه من بطن الحوت، ثم قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ [الأنبياء:٨٨]، فكل من وَقَع في كَرْب ولجأ إلى الله أنجاه الله، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

٣- قال ﷺ: «**دعوة ذي النون، إذ دعا وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**» [رواه الترمذي].

n

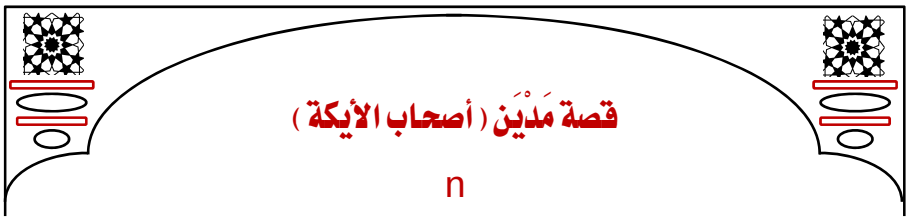

قصة مَدْيَن (أصحاب الأيكة)

n

أرسل الله تعالى رسوله شُعَيْب عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أهل مَدْيَن، وهم (أصحاب الأيكة) كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٧٦]، والمراد بالأيكة هي الشجرة، وهي إشارة لما كان عندهم من الأشجار والبساتين والنِّعَم، فلمَّا جاء شُعيب إلى قومه دعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده وترك ما يعبدونه من الأصنام والأوثان، وكان أهل مَدْيَن إلى جانب شركهم بالله عندهم الفساد، فكانوا لا يوفون الكيل عند البيع للناس، وكانوا يصدُّون الناس عن الإيمان بدعوة شُعَيْب، فنهاهم شُعيب عن ذلك، وأمرهم أن يوفوا الكيل عند البيع، ونهاهم عن الصَّد عن سبيل الله فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٥-٨٧]. وبيَّن لهم أنَّ ما أبقى الله لهم من رزقٍ حلال من البيع عندما يوفون للناس الكيل، هو خيرٌ مما يغشونهم في الكيل والميزان فقال: ﴿بَقِيَّتُ

ٱللَّهِ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ [هود:٨٦]. وقد دعاهم إلى تقوى الله وطاعته، وأخبرهم أنَّه يدعوهم لوجه الله لا يريد منهم أجرًا على دعوته لهم، بل يريد الأجر من الله وحده فقال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٧٨-١٨٠]. فقالوا لشُعيب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧].

أي أن قوم شُعيب يزعمون أنَّ نهي شُعيب لهم عن عبادة الأصنام، ونهيه لهم عن التطفيف في الكيل والميزان هو بسبب عبادته التي تُخالف عبادتهم، ويدَّعون أنَّه ليس رسول مُرسَلٌ من عند الله، ثم يستهزؤون بنبيِّهم بأنَّه لن يكون أكثر رُشدًا منهم ومن آبائهم الذين دلَّتهم عقولهم على عبادة الأصنام، فقال لهم شُعيب: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود:٨٨-٩٠].

أي أنَّ شُعيب يخبر قومه بأنَّ ما ينهاهم عنه ليس من تلقاء نفسه، بل هو وحيٌ من عند الله وأنَّه على بيِّنة من الله، وقد رزقه الله الهُدى والنبوَّة والصلاح، وبيَّن لهم أنَّ دعوته لهم ليس المراد منها أن ينتهوا عمَّا نهاهم عنه، ثم يذهب ليفعله هو، بل الهدف من دعوته لقومه هو الإصلاح لحالهم وتعبيدهم لله

تعالى، ثم حذَّرهم من أن يكون مخالفتهم له ومشاقَّتهم له سببًا في زيادة كُفرهم وعنادهم، ودعاهم إلى الاعتبار بما حصل لقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، وقد كان عذابهم قريبًا من قوم شُعيب، ثم دعاهم للتوبة والاستغفار من عبادتهم للأصنام وتطفيفهم للكيل والميزان.

وحينها زعم قوم شُعيب أنهم لا يفهمون قوله فقالوا له: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود:٩١]. وزعموا بأنَّ شُعيب مسحور وأنَّه بشرٌ مثلهم، وقد كذب عليهم ثمَّ تحدَّوه أن يأتيهم بالعذاب من السماء فقالوا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء:١٨٥-١٨٧]. ثم قالوا له: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١]. أي ولولا قبيلتك وعشيرتك لرجمناك، وليس لك قدرٌ عندنا، فقال لهم شُعيب: ﴿أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود:٩٢-٩٣]. أي كيف يكون قدر جماعتي أعظم من قدر الله الذي أدعوكم إليه؟! ولكن اعملوا ما تريدون، وسأعمل وسنرى مَن هو الصادق ومَن يحلُّ عليه العذاب؟ ثم قال لهم: ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:١٨٨].

وحينها جاء أشراف قوم شُعيب الذين استكبروا إلى شُعيب ليخيِّرونه بأن يبقى على توحيده لله وإخلاص العبادة له، ويخرجونه من أرضهم هو

الذين آمنوا معه، أو يعود معهم في عبادة الأصنام فقالوا له: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨]. فقال لهم شُعيب: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف:٨٨]. أي ماذا لو كنَّا كارهين لعبادتكم للأصنام؟ ثم قال لهم: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٩].

أي سوف نكون قد افترينا الكذب على الله إذ دعوناكم لعبادته، ثم نعود معكم لنُشرك بالله، ثم دعا الله بأن يفتح الفتح المُبين بينه وبين قومه، ثمَّ أخذ قوم شُعيب يصدُّون المؤمنين عن اتِّباع شُعيب ويقولون لهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٠].

وحينها أخذهم الله بالعذاب، فأصابهم حرٌّ شديد، ثم جاءت سحابة فأرادوا أن يستظلُّوا بظلِّها من شدَّة الحرّ قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٨٩]، ثم أخذتهم صيْحةٌ عظيمة قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود:٩٤]، ثم رجفت الأرض واهتزَّت من تحت أقدامهم فهلكوا جميعًا قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت:٣٧]، وأنجى الله شُعيبًا والذين آمنوا معه قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود:٩٤]، وبعد هلاك قومه قال شُعيب: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ

﴿قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٣]؟ أي كيف أحزن على قوم أشركوا بالله وقد نصحت لهم ودعوتهم فلم يستجيبوا؟

وقال الله عن قوم شُعيب: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٢]. أي كان الخاسرين هم الذين كذَّبوا شعيبًا ولم يؤمنوا بما جاء به، وقال تعالى عنهم: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ [هود:٩٥]. أي لقد هلكت مَدْين بسبب شركهم بالله كما هلكت ثمود.

العِبْرة:

١- تحريم التَّطفيف في الكيل والميزان، ولذلك نهى شُعيب قومه عن هذا الفعل فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [هود:٨٤]. ولذلك فقد توعَّد الله المطفِّفين بالويل والهلاك قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين:١-٣].

٢- أنَّ الرزق الحلال تصحبه البركة وإن كان قليلًا، والمال الحرام لا بركة فيه وإنْ كان كثيرًا، ولذلك قال شُعيب لقومه: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ [هود:٨٦]. أي ما يبقى لكم من رزق حلال بدون تطفيف في المكيال خيرٌ لكم، ولذلك توعَّد رسول الله آكل المال الحرام بالنار فقال ﷺ: «**إن رجالًا يتخوَّضون في مال الله بغير حقٍّ، فلهم النار يوم القيامة**» [رواه البخاري].

٣- لا يجوز لأحد أن يصُدَّ إنسانًا عن الإيمان بالله وطاعته، ولذلك نهى شُعيب قومه عن هذا الفعل فقال لهم: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف:٨٦]. ولذلك توعَّد الله بالعذاب مَنْ يصُد عن سبيله فقال: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف:٤٤-٤٥].

٤- يجب تعظيم الله تعالى وتقديم محبَّته على كل أحد، ولذلك أنكر شُعيب على قومه عندما ذكروا له أنَّ الذي يمنعهم من إيذائه هو قبيلته فقال لهم: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود:٩٢]. ولذلك كان من كمال الإيمان أنْ يُقدِّم الإنسان محبَّة الله ورسوله على محبَّة كلِّ أحد فقال ﷺ: «**ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار**» [رواه البخاري].

n

قصة أصحاب القرية

n

لقد ضرب الله لنا مثلا في القرآن الكريم لأصحاب قرية أرسل الله عَزَّوَجَلَّ إليهم رُسُلًا فكذَّبوهم قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ [يس:١٣-١٤]، فكذَّبهم قومهم وزعموا أنَّهم ليسوا إلَّا بشرًا مثلهم، وليسوا رُسُلًا من عند الله، فقالوا لرُسُلِهم: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ [يس:١٥]. فقال الرُّسُل مؤكِّدين صِدْقَهُم وأنَّهم رُسُلٌ من عند الله: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [يس:١٦-١٧]. أي لسنا مُكلَّفين بإدخالكم في الدِّين بالقوَّة، إنْ نحن إلَّا رُسُل نبلِّغُكم رسالة الله إليكم، فإنْ اهتديتم فلأنفسكم وإنْ ضللتم فعليها، فقال لهم قومهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يس:١٨]. أي أنَّهم يزعمون أنَّهم تشاءموا برُسُلِهم ووقع عليهم الشَّر بمجيء الرُّسُل إليهم، ثم هدَّدُوهم بأنَّهم إنْ لم ينتهوا عنْ دعوتهم فإنَّهم سيقتلونهم رجمًا بالحجارة وأنَّهم سوف يُعذِّبونهم، فقال لهم الرُّسل: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ [يس:١٩]. أي إنَّ الشَّر موجود معكم بوجود الشرك والكفر بالله، وهذا أعظم ما يجلب عليكم البلاء في الدنيا والعذاب في الآخرة، فأنتم مسرفون على أنفسكم بالكفر والشرك بالله.

ثم جاء رجل من أقصى المدينة آمن برُسُل الله وصدَّقهم واتَّبع ما جاءوا به من الهدى والبيِّنات، فقام بما يجب عليه من الدَّعوة إلى الله تعالى وتصديق الرُّسّل فقال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [يس:٢٠-٢١]. فدعا قومَه إلى اتِّباع المُرسلين كما اتَّبعهم هوَ، وأخبرهم أنَّ الرُّسُل يدعونهم إلى الله ولا يريدون منهم أجرًا مقابل دعوتهم، وهذا يدلُّ على صدق هؤلاء الرُّسل، فكأنَّ قومه أنْكروا عليه ترك الشرك واتِّباع الرُّسُل وأنَّهم عابوه بذلك، فقال لهم الحُجَّة التي جعلته يترك عبادتهم وشركهم ويتَّبع الرُّسُل ويخلص العبادة لله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ [يس:٢٢-٢٥].

فبيَّن لهم أنَّ الذي جعله يترك شركهم وعبادتهم ويخلص العبادة لله، هو أنَّ الله الذي خلقه وأوْجده، وهو الذي ينجِّيه من كُرُبات الدنيا والآخرة، وأنَّ آلهتهم وأصنامهم لا تُغني عنهم شيئًا ولا تملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، فبذلك يكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المستحق للعبادة، فلمَّا مات هذا الرَّجُل المؤمن أدْخله الله الجنة جزاءً له على صِدْقه وإخلاصه في عبادة ربِّه ونُصْحِهِ لقومه قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [يس:٢٦]، فقال حينها متحسِّرًا على قومه: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس:٢٦-٢٧].

ثم بعد ذلك أنْزل الله العذاب على أهل هذه القرية الذين كفروا بالله وكذَّبوا المرسلين، فأهلكهم الله بالصَّيْحة قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ

بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس:٢٨-٢٩].

ثم ذكر الله تعالى حال الأقوام من الناس مع رُسُلهم فقال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس:٣٠]، ثم أمر الله تعالى بأخذ العِظَة والعِبْرة من الأمم السابقة لمَّا كذَّبوا الرُّسُل فأهلكهم الله، وذلك لأنَّ سنَّة الله لا تتغيَّر ولا تتبدَّل قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس:٣١].

العِبْرة:

١- أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ رحيم بعباده، ولذلك أرسل إلى أهل هذه القرية ثلاثة رُسُل لتقوم عليهم الحُجَّة ولعلهم يهتدون، فمن يشرك بالله فضرره على نفسه، والله هو الغني عنا وعن عبادتنا وإنْ تولَّى الإنسان فالله قادر على أن يأتي بغيره قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨]، والله لا يريد أنْ يعذِّب أحدًا من خلقه قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٧]. ولكن من أشرك بالله وتولَّى فقد استحقَّ العذاب.

٢- أنَّ الذي يجلب على الناس العذاب والنَّكد والضِّيق في العيش في الدنيا هو معصية الله تعالى والشرك به قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤].

وطاعة الله تعالى وتوحيده والإيمان به سبب في حصول الخير والبركة للناس في حياتهم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

ولذلك عندما تشاءم أهل القرية من الرُّسل وزعموا أنَّ ما يصيبهم من بلاء هو بسبب رُسُلهم فقالوا لهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس:١٨]. فردَّ عليهم الرُّسُل بأنَّ ما يصيبهم من بلاء هو بسبب كفرهم بالله تعالى وشركهم به فقالوا لهم: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس:١٩].

٣- وجوب الدَّعوة إلى الله تعالى وأنَّ الإنسان إذا هداه الله فيجب عليه أن يستشعر مسؤوليته في الدعوة إلى الله، ويعلم أنَّها واجبةٌ عليه بقدر علمه، فيدعو على علم وبصيرة، ولذلك عندما آمن ذلك الرَّجل جاء من أقصى المدينة ليدعو قومه إلى الإيمان بالله واتِّباع الرُّسل قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٢٠].

٤- يجب على الدَّاعية أنْ يكون رحيمًا بالمدعوِّين، ولذلك عندما مات الرَّجل المؤمن من أهل هذه القرية وأدخله الله الجنَّة، تمنَّى أنْ يعلم قومُه بما أكرمه الله به من النَّعيم بسبب إيمانه فيؤمنوا ليحصلوا على النعيم الذي حصل عليه فقال: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:٢٦-٢٧].

قصة مولد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

n

وُلِد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في زمن ملك مصر الطاغية فرعون، الذي ادَّعى الألوهية، وقد بالغ في ظلمه وطغيانه، حتى إنه كان يستضعف بني إسرائيل -وإسرائيل هو نبي الله يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-، لأنهم لم يكون لديهم مَنَعَه، وكان فرعون يقتل أطفالهم خشية أن يتكاثروا فيغلبونه على مُلكِه، فلمَّا ولدت أم موسى بموسى خافت عليه أنْ يقتله فرعون، فألهمها الله عَزَّوَجَلَّ أن تضعه في تابوت خشبي وتلقيه في نهر النيل، ووعدها الله تعالى بأن يعيد لها ابنها، ففعلت أم موسى، فوضعت موسى في التابوت ووضعته في النهر، وأرسلت أخته لتقص أثره وتعرف خبره، فسار به التابوت في النهر حتى وصل إلى قصر فرعون، فلما رأته امرأة فرعون وكانت امرأةً صالحة وهي آسية بنت مزاحم فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:٩]، وفي هذه الأثناء أصحبت أم موسى خائفةً على ابنها حتى كادت أن تتكلَّم بما في نفسها من خوفها على ابنها، لولا أن ربط الله على قلبها وثبتها، وفي تلك الأثناء لم يقبل موسى الرضاع من جميع النساء، ما دفعهم إلى البحث عن مُرضعة، فقالت أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص:١٢]؟ فدلَّتهم على أم موسى، فرضع منها موسى وتحقق لها وعد الله بأن يعيد لها ابنها، فاطمئن قلب أم موسى على ابنها، فأصبحت تُرضعه ثم تعيده إلى قصر فرعون.

قال تعالى في قصة موسى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

[القصص:١-١٣].

العِبْرة:

١ - إذا أراد الله أمرًا هيأ أسبابه، فقد أراد الله أن يُنهي الظلم الذي وقع على بني إسرائيل في زمن فرعون، فقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ

فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥-٦]، فجعل الله من الأسباب لينتهي عن بني إسرائيل الظلم أن جعل نبيه موسى منهم.

٢- إن الله لا يخلف الميعاد، فقد وعد الله أم موسى بأن يعيد إليها ابنها، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧]، فمنع الله موسى من قبول الرضاع من أي امرأة، ما دفع آل فرعون للبحث عن مرضعة، فدلَّتهم أخته على أمه، ليتحقق وعد الله لأم موسى بأن يعيد ابنها إليها، فقال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص،١٣].

٣- قال ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وإنَّ فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**» [رواه البخاري]، ولأنَّ آسية امرأة فرعون امرأةٌ صالحة أشارت على زوجها بعدم قتل موسى، فالصالحون لا يحبون قتل الناس بغير الحق، حتى وإنْ كان فرعون زوجها فهي لا توافقه على أفعاله، ولهذا امتدحها الله وجعلها مَثَلًا للمؤمنين فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم:١١].

n

قصة محاولة فرعون وقومه قتل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وخروجه إلى مدين

n

بعـدما نشأ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وكبر وترعرع في قصر فرعـون، أعطاه الله العلم، وفي يوم من الأيام دخل المدينة في وقت غفلة من الناس، فوجد رجلين بينهما نزاع وخصومة، أحدهما من بني إسرائيل، والآخر قبطي من قوم فرعون، فاستغاث الإسرائيلي بموسى، فجاء موسى وضرب القبطي ضربة قوية فقتله، وموسى لم يقصد قتل القبطي، فتاب موسى واستغفر وندم على ما كان منه، ولما كان اليوم الثاني خرج موسى خائفًا يترقب هل يشعر به أحد؟ فوجـد الإسرائيلي الذي استغـاثه بالأمس يستغيثه مرة أخـرى في نزاع له مع رجل آخر من قوم فرعون، فقال موسى للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٨]، فتقدَّم موسى ليضرب القبطي، فصرخ القبطي وقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [القصص:١٩]، وحينها توقف موسى عن ضرب القبطي، وشاع الخبر بأن موسى قتل رجلًا من قوم فرعون، وحينها عزم فرعون وقومه على قتل موسى، فجاء رجلٌ مُحذِّرًا موسى مما اجتمع عليه رأي فرعون وقومه وهو قتله، فخرج موسى من مصر خائفًا يترقَّب، لئلَّا يلحق به فرعون وقومه، حتى وصل إلى مدين، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ

وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:١٤-٢١].

ولما ورد موسى ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون أنعامهم، ووجد امرأتين من دونهم يمنعون أغنامهم من الماء، فقال لهم موسى: ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾ [الشعراء:٢٣]. فقالت الفتاتان: ﴿لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ [القصص:٢٣]، فسقى موسى لهما ثم ذهب ليتظلل من حرارة الشمس، وذهبت الفتاتان إلى أبيهما وأخبرتاه بما جرى، فأراد والدهما أن يكافئ موسى لما سقى لهم أنعامهم، فأرسل أحدى بناته إلى موسى، وقالت له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ [القصص:٢٥]، فذهب موسى إلى والد الفتاتين وقص عليه قصته، فقال له: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢٥]، فلمَّا رأت إحدى الفتاتين في موسى القوَّة في أثناء سقيه لأنعامهم، وأمانته فقالت إحدى الفتاتين: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦]، فعرض والد الفتاتين على موسى بأن يزوِّجه إحدى بناته مقابل أن يعمل عنده في الرَّعي لثمان سنوات، ثم قال له: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص:٢٧]، أي إن أكملت العشر سنوات فهذا فضل منك، فوافق موسى على ما عرضه والد الفتاتين، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص:٢٨].

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص:٢٢-٢٨].

العِبْرة:

١- تحريم قتل النفس بغير الحق، ولذلك تاب موسى وندم على ما كان منه من قتل النفس، مع أنه لم يتعمد ذلك، وقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص:١٥-١٦].

٢- من أهم شروط التوبة النصوح هو النَّدم على المعصية، ولذلك عندما ندم موسى على ما كان منه من قتل النفس تاب الله عليه وغفر له، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص:١٦].

٣- إذا أنعم الله تعالى على الإنسان بنعمه فيجب عليه أن يُسخِّرها في طاعة الله، ولذلك قال موسى عندما أنعم الله عليه بالتوبة والمغفرة وأنعم عليه بالقوة في بدنه: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص:١٧]، أي فلن أكون معينًا لمجرمٍ على معصية.

٤- عند الوقوع في الكرب فيجب على الإنسان التوسُّل إلى الله ودعائه، فموسى عندما خرج من مصر دعا الله بأن ينجِّيه من قوم فرعون، فنجَّاه الله، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢١]، وعندما سلك موسى الطريق إلى مدين فكان لا يعرف أقرب الطرق إليها، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢]، فهداه الله السبيل إلى مدين، وبعدما سقى موسى للفتاتين دعا الله تعالى أن يرزقه فرزقه على

يد والد الفتاتين، بأن زوَّجه ابنته مقابل الرَّعي، قال تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

٥- الصِّفتين اللازمتين للشخص عند إعطائه العمل هي القوَّة على أداء هذا العمل والأمانة، ولذلك قالت إحدى الفتاتين لوالدها لما رأت من موسى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

n

قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما أوحى الله إليه

n

بعدما قضى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الأجل الذي اشترطه عليه والد الفتاتين في مدين عاد بزوجته إلى مصر، وعندما كان يسير في الليل في الطريق، أحس بضوء نار فقال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص:٢٩]، أي لعلي أجد عند النار من يدلُّني الطريق أو آتيكم منه بجذوة من النار تتدفؤون بها، فلما وصل ناداه الله عَزَّوَجَلَّ فقال: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص:٣٠-٣٢]، فأمره الله بأن يُلقي عصاه التي بيده فانقلبت إلى حية فولَّى موسى خائفًا ولم يرجع، فقال له الله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص:٣١]، ثم أمره الله بأن يضع يده في جيبه ثم يضمّ إليها عَضُدَه فتخرج بيضاء من غير شرٍّ بها، وقال له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه:٢٤]، أي إن فرعون تجاوز حدوده وكفر بالله وادَّعى الألوهيَّة، فقال موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ

هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص:٣٣-٣٥]، فيذكر موسى ما يواجهه من صعوبات في هذا الأمر، فقد قتل منهم نفسًا، ثم طلب من الله أن يجعل له أخاه هارون معينًا في دعوته فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء:١٢-١٤]. ثم سأل الله أن يشرح صدره، وييسر أمره، ويحلل عقدة في لسانه، فأعطاه الله ما سأل، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٢٥-٣٦].

العِبْرة:

١- إشعال النار ليلا في الصحراء من علامات الكرم، لأن صاحبها يقْصُدُهُ المارَّة، ليستضيفهم أو يدلِّهم على الطريق، أو يؤويهم حتى الصباح، ولذلك لمَّا تاه موسى وأهله في الطريق وشعروا بالبرد ورأى النار فَقَصَدَهَا مباشرة وقال في سبب ذلك: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص:٢٩].

٢- أنَّ الله تعالى يؤيِّد رُسُله بالمعجزات التي بمثلها يؤمن الناس، ويعطي كل رسول معجزة بَرَع فيها قومه، ثم يعجزون عن الإتيان بمثل

هذه المعجزة فتكون حجَّةً عليهم؛ ليؤمنوا ويتَّبعوا الرسول ويعلموا أن الذي أُرْسِلَ به هو الحقُّ من عند الله.

ولذلك أعطى الله تعالى موسى المعجزات التي يؤيِّده بها في دعوته وهي العصى تنقلب إلى حيَّة حقيقيَّة، ويخرج يده من تحت عَضُدِه فتخرج بيضاء قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [القصص:٣١-٣٢].

٣- إذا لم يستطع الإنسان أنْ يبوح بما في نفسه ويتكلم به، فإنَّ هذا يُسبِّب له ضيق الصَّدر والهمّ، فلذلك لا ينبغي للإنسان أنْ يكتم الهموم بداخله لئلَّا يضيق صدره بها، بل يجب عليه أنْ يبوح بما يؤذيه إلى من يثق به؛ ليكون عونًا له على التخلُّص من همومه، وإذا لم يجد من يثق به ليبوح له بتلك الهموم، فليشكو حاله إلى الله ويدعوه؛ فإنَّ الله هو القادر على أن يفرِّج عنه، فإذا فعل ذلك ارتاح قلبه وسكنت نفسه.

ولذلك موسى اشتكى إلى الله من هذا الأمر فقال: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ [الشعراء:١٢-١٣]. ثم طلب من الله أنْ يجعل معه أخاه هارون معينًا له على هذا الأمر فقال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ [الشعراء:١٣].

n

قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون

n

بعد ما أوحى الله تعالى إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أمره أن يذهب إلى فرعون، لأنه قد طغى، فقال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات:١٧-١٩]، فذهب موسى وهارون إلى فرعون، وقالوا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٦-١٧]. وقال موسى: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف:١٠٤-١٠٥]. فأخذ فرعون يذكِّر موسى بأنه تربى في قصره، وأنه قتل منهم نفسًا ليثنيه عن دعوته، ويدَّعي أنه صاحب الفضل عليه، فقال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء:١٨-١٩]. فقال موسى: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٢١-٢٢].

فاعترف موسى بأنه أخطأ في قتل النفس، وأما تربية موسى في قصر فرعون، فبيَّن موسى لفرعون أنَّه ليس له حقٌّ في أنْ يمنُّها عليه، وقد جعل فرعون بني إسرائيل عبيدًا عنده، وحينها حصل بين موسى وفرعون النقاش التالي، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٢٣-٣٧].

وبعد ذلك ادَّعى فرعون الألوهيَّة، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢١-٢٤]، وقد تكبَّر فرعون، فأمر هامان وزيره أن يبني له برجًا ليصعد عليه وليرى صدق موسى، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨]. وبعدما رأى فرعونُ المعجزات التي مع موسى، كذَّب بها واستكبر وجمع السحرة للقاء موسى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم

بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ [طه،٥٦-٦٤].

وجُمع السحرة وجاء موسى وهارون، وقال السحرة لفرعون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء:٤١]. فقال فرعون: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء:٤٢]. فقال موسى للسحرة: ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [الشعراء:٤٣]. فألقى السحرة حبالهم وعصيَّهم، وقال تعالى بيانًا لما جاؤوا به من السحر: ﴿قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦]، حتى أصبح الناس يتخيَّلون أن هذه الحبال والعصي تتحرَّك، قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦]، وحينها شعر موسى بالخوف، فثبَّته الله، وأمره أن يُلقي عصاه، فإذا بها تنقلب حية كبيرة ثم تبتلع الحبال والعصي، قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٧-٦٩]، وحينها وقع الحق وبطل السحر، وخسر فرعون، قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف:١١٨-١١٩]، وبعدما رأى السحرة الحقَّ مع موسى، ورأوا المعجزة، وأن العصى التي مع موسى انقلبت إلى حية حقيقية وليس تخييل كما يفعلون، فعند ذلك علموا أن موسى جاء بالحق من عند الله، فلم يسعهم إلا الإيمان بالله، فسجدوا لله تعالى، قال تعالى:

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء:٤٦-٤٨]، فقال فرعون متوعِّدًا سحرته: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء:٤٩]، فقال له السحرة في ثبات على الإيمان بالله لمَّا علموا علم اليقين بما رأوه من معجزات أنَّ الله هو الحق وهو الإله المستحق للعبادة: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:٧٢-٧٣].

العِبْرة:

١- أنَّ الله يمهل الظالم ليعود إلى رشده ويتوب، فإذا لم يتوب أخذه الله أخذًا عزيزًا، فهذا فرعون أمهله الله، وأرسل إليه موسى وهارون، وأمرهم أن يكلموه بالقول اللَّيِّن لعله يتذكر، قال تعالى لموسى وهارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٣-٤٤]. وعندما عاند فرعون واستكبر وطغى وادَّعى الألوهية ولم يتب ولم يرجع إلى الله، أخذه الله أخذًا عزيزًا، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات:١٥-٢٦].

٢- من صفات الظالم أنَّه منَّان، فلا يعمل شيئًا لوجه الله، ففرعون أخذ يَمُنُّ على موسى أنه تربَّى في قصره، فقال لموسى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨]. فردَّ عليه موسى فقال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:٢٢]. أي لا تَمُنَّ عليَّ هذه النعمة، وقد جعلت بني إسرائيل عبيدًا عندك.

والمؤمن ليس من صفاته المِنَّة، وقد امتدح الله المؤمنين بأنهم لا يمنُّون صدقاتهم، ووعدهم على ذلك بالأجر والأمن، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٦٢].

٣- قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢]، فالله هو الحق وما يأتي من عند الله هو الحق، وليس بعد هذا الحق إلَّا الضَّلال، فهذه عصى موسى جعلها الله تنقلب إلى حيَّة حقيقيَّة، ولذلك قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه:٢٠]، أي تزحف، وهذا لئلا يتوهم أحد أن الحيَّة مجرَّد تخييل في أعين الناس، بل إن عصى موسى انقلبت إلى حيَّة حقيقيَّة.

وأمَّا سحرة فرعون فالذي جاؤوا به هو الضلال وهو السحر، والسحر ليس له حقيقة بل هو مجرَّد تخيُّلات، ولذلك قال الله عن الذي جاء به السحرة: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦]، فلذلك لمَّا رأى السحرة عصى موسى تنقلب إلى حيَّة حقيقيَّة وليس تخييل -لأنهم يعرفون

السحر وتخيُّلاته- فعلموا حينها أن الذي جاء به موسى ليس من عند بشر، لأنهم عرفوا قدرات البشر، وما جاء به موسى أمر يفوق قدرات البشر، فعلموا أنَّ لهم إله قادر على كل شيء، فلم يسعهم إلَّا الإيمان به، وهذا سِرُّ ثباتهم على الإيمان بالله أمام تهديد فرعون لهم بالقتل والصلب، فهم ليس لهم زمن طويل في الإيمان بالله لنقول أنهم ذاقوا حلاوة الإيمان فثبتوا عليه، بل هذا هو سر ثباتهم، أنهم علموا أن الله هو الحق، وليس بعد الحق إلا الضلال.

n

قصة مؤمن آل فرعون

n

بعد تهديد فرعون للسحرة بالقتل والصلب بسبب إيمانهم بما جاء به موسى وهارون، قال قوم فرعون لفرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧]. أي هل ستترك موسى وقومه بني إسرائيل بدون فعل شيء لهم؟ فإنهم يدعون إلى عبادة الله، فقال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧]. وقال: ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ [غافر:٢٥]. أي سنقتل أبناء بني إسرائيل ونأسر نساءهم، فلا يتكاثرون ونحن أقوى منهم، فقال موسى لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

أي اصبروا فإن الأرض لله وهو المتصرِّف فيها، وسوف يورثها لمن شاء من عباده والعاقبة والنصر يكون دائمًا لمن يتقي الله تعالى، وحينها اشتكى بنو إسرائيل لموسى من الأذى الذي يواجهونه من فرعون وقومه فقالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف:١٢٩]. فقال لهم موسى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩]. أي يمكنكم ربكم في الأرض؛ ليرى هل تكونوا من الشاكرين أم من الكافرين؟

ثم أراد فرعون قتل موسى مرة أخرى فقال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦]. فقال موسى: ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر:٢٧].

وحينها جاء رجل من قوم فرعون قد آمن بما جاء به موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وقد كان يكتم إيمانه -خشية على نفسه من بطش فرعون- لينكر على فرعون قتل موسى فقال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر:٢٨]. أي كيف تقتلون رجلًا يقول ربِّي الله؟ وما هو الجُرْم الذي ارتكبه؟ فكيف تقتلونه ولم يُجرم ولم يستحق القتل؟ فقتله بهذه الصورة ظلمٌ وعدوان، وإنْ كنتم تريدون قتله لأنَّه يدعو إلى الله فإنَّه لا يحقُّ لكم ذلك، وأنتم سمعتم دعوته فإن كان كاذبًا فعليه كذبه، وإنْ كان صادقًا واتَّبعتموه فإنَّه سيأتيكم ما يَعِدُكُم به.

ثم أخذ يدعو قومه فيقول لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ [غافر:٢٩]. فذكَّرهم بنعمة الله عليهم وتمكينهم في الأرض فقال فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩]. فلم ييأس الرجل المؤمن من دعوتهم، بل استمر يدعوهم ويخوِّفهم من عذاب الله كما حصل للأمم من قبلهم فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ

بَعْدِهِۦ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ [غافر:٣٠-٣٤]. وحينها تبيَّن صدق موسى للناس من خلال دعوة مؤمن آل فرعون، فأراد فرعون أنْ يأتي بدليل لكي يُكذِّبَ موسى، وليصرف الناس عن الإيمان به فقال لوزيره هامان: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

فهو يريد من هامان أن يبني له بناءً مرتفعًا ليصعد عليه ويتأكَّد من صدق موسى فقال الله عن فرعون: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ [غافر:٣٧]، فعاد مؤمن آل فرعون يدعو قومه فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر:٣٨-٤٠]. فعاد فرعون يريد أنْ يثني هذا الرجل عن إيمانه ويدعوه للكفر بالله فقال مؤمن آل فرعون متعجِّبًا من ضلال فرعون وقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ

لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [غافر:٤١-٤٤].

فمكر فرعون بهذا الرجل وأراد قتله فأنجاه الله قال تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٥-٤٦].

العِبْرة:

١- أتباع الظالم أحد شخصين، إما صاحب مصلحة أو جاهل، وأمَّا النَّبيه المُتبَصِّر فإنه يرى الحق ويتبعه، وحتى ولو كان في ذلك قتله، لأنه لن يُسلِّم عقله لظالم لكي يعبث به، فهذا فرعون يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨]. أي لا أعلم لكم إله غيري، وهذا يدلُّ على عدم علم فرعون، وقومه يبنون له البرج لكي يتأكد من صحة دعوة موسى، وهذا مع أنَّ موسى قد جاءهم بالمعجزات الواضحات الدَّالَّة على صدقه، فلم ينظروا لها، وهذا يدل على جهل قوم فرعون، وأما فرعون وأصحاب المصلحة معه فلهم أهداف أخرى، وهي أنهم لا يريدون الناس أن يتبعوا موسى، فحينها لن يكون لهم سُلْطَةٌ عليهم، ودلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ

لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٧]. فكانت نتيجة اتِّباع فرعون عندما قال لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر:٢٩]. كانت النتيجة كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود:٩٧-٩٩].

وأمَّا السَّحرة فعندما رأوا المعجزة التي مع موسى فعلموا أنها الحق، وحينها آمنوا به وثبتوا على إيمانهم، حتى مع تهديد فرعون لهم بالقتل والصلب، لأنهم رأوا الحق فلم يقبلوا إلا باتباعه.

٢- من أبْصرَ طريق الحقّ والهداية وأعطاه الله العلم، فإنَّه يجب عليه الدَّعوة إلى الله قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥]، وهذا ما فعله مؤمن آل فرعون، فعندما آمن قام بواجب الدَّعوة إلى الله على بصيرة وعلم، وقام بمجادلة فرعون وقومه بالتي هي أحسن حتى أنجاه الله من مكرهم، وأهلك فرعون وقومه.

٣- أنَّ الشيطان يزيِّن للإنسان العمل السِّيء ولذلك قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر:٨]، ولذلك فإنَّ من أسباب الغواية هي أنْ يرى الإنسان عمله السيء حسنًا.

وهذا ما كان يحصل مع فرعون، فإنَّه كان يرى سوء عمله حسنًا فلذلك قال الله عنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ [غافر:٣٧].

n

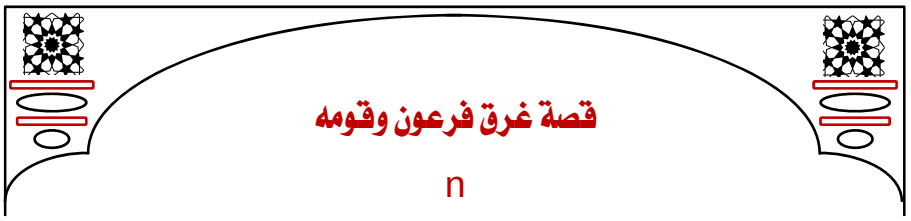

قصة غرق فرعون وقومه

n

بعد أنْ كفر فرعونُ بموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ولم يقبلوا دعوة مؤمن آل فرعون، أخذهم الله بالشِّدة والجدب ونقص الثمرات من الزروع لعلهم يرجعون إلى الله ويؤمنون به، فكانوا في تلك الحال إذا أصابتهم نعمة زعموا أنهم يستحقونها وأنهم أصحاب الفضل فيها ولا يشكرون الله عليها، وإذا أصابهم سوء ومكروه، تطيروا وتشاءموا وزعموا أنه بسبب موسى وقومه، ومع هذا الابتلاء الذي يكون من المفروض أنهم فيه يرجعون إلى الله ازدادوا كُفرًا وعنادًا، وزعموا أن موسى ساحر، وأنه لن يسحرهم بما جاء به، فابتلاهم الله بالطوفان عندما جاءت أمطار شديدة فأهلكت زروعهم، وابتلاهم بالجراد فأكل مزارعهم، وابتلاهم بالقُمَّل والضفادع فكانت عندهم بأعداد كبيرة، وابتلاهم بالدَّم يكون في الماء الذي يشربونه ويطهون به طعامهم، فلمَّا اشتد عليهم البلاء طلبوا من موسى أن يدعوا الله ليكشف ما بهم، ووعدوه أنه إذا انكشف هذا البلاء بأنهم سيؤمنون بالله ويرسلون معه بني إسرائيل، فدعا موسى ربَّه أنْ يكشف ما بفرعون وقومه فاستجاب الله دعاء موسى وكشف عنهم العذاب، وحينها نكثوا بالوعد الذي أعطوا موسى، فلم يؤمنوا به ولم يرسلوا بني إسرائيل معه قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن

تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٠-١٣٥].

وحينها أوحى الله إلى موسى أن خذ بني إسرائيل ليلًا وأسر بهم، ليتمكنوا من الهرب قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه:٧٧-٧٩]. فأخذ موسى قومه من بني إسرائيل وسار بهم ليلًا فعلم فرعون، فجمع قومه ولحقوا بموسى وبني إسرائيل، حتى وصلوا إلى البحر، فكان البحر من أمامهم وفرعون وقومه من خلفهم، فظن قوم موسى أنه سيُدركهم فرعون وقومه، فقال موسى بقلب مؤمن بالله وواثق بوعد الله: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢].

فأمره الله أن يضرب بعصاه البحر فانفلق البحر فسار موسى وبنو إسرائيل في الطريق اليابس من البحر، حتى إذا خرجوا عن آخرهم ودخل فرعون هذا الطريق اليبس من البحر هو وقومه عن آخرهم، أمر الله البحر

فانطبق على فرعون وقومه، وحينها قال فرعون: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]. فقال الله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس:٩١-٩٢].

قال تعالى في قصة فرعون وقومه: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٦-١٣٧].

وقال تعالى عن قصة غرق فرعون وقومه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٥٢-٦٧].

العِبْرة:

١- أنَّ الأرض لله يورثها لمن يشاء من عباده، والله هو المدبِّر لشؤون

خلقه، ولايكون إلا مشيئة الله، وانظر لفرعون وهو يهدد بني إسرائيل بالقتل ونساءهم بالسَّبي فقال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧]. فقال موسى لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

فكانت مشيئة الله فوق ما يريد فرعون، فأهلك الله فرعون وأورث الأرض لبني إسرائيل، وتأمَّل قول موسى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]. وفي هذا فائدة أن الله يجعل النصر والعاقبة والفوز للمتقين والمؤمنين قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

٢- في حال الابتلاء فيجب على الإنسان أمرين وهما: الثبات على أمر الله بالاستعانة به، والصبر، فبهما ينال الإنسان رضا الله، وهذا ما فعله إبراهيم في حال ابتلائه، وهو ما أوصى به موسى بني إسرائيل عندما شكوا إليه ظلم فرعون وقومه، فقال لهم موسى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوا۟﴾ [الأعراف:١٢٨].

٣- إذا ابتلى الله الإنسان بأي ابتلاء، إما مصيبة أو موت قريب أو خسارة في مال أو أي ابتلاء من الابتلاءات، فحال الإنسان فيها لا يخلو من أمرين: إما أن يكون تذكير من الله لهذا الإنسان بأن يرجع إليه ويتوب

ويستغفر ويصحو من غفلته، فقد قال تعالى عندما ابتلى فرعون وقومه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٣٠].

وإمَّا أن يكون رفعة في درجات ذلك الشخص المُبتلى لأنَّه صاحب إيمان وتقوى، فبالابتلاء يغفر الله له ويُعلي درجته في الجنة، لقوله ﷺ: «**مايصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حَزَن ولا أذى ولا غمّ، حتى الشَّوكة يُشَاكُها إلا كفَّر الله بها من خطاياه**» [رواه البخاري]، وقال ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ**» [رواه البخاري].

٤- وجوب الوفاء بالعهود، ففرعون وقومه طلبوا من موسى أن يدعو الله أن يرفع عنهم العذاب، وإذا فعل فإنهم سيؤمنون ويرسلون معه بني إسرائيل، فلما دعا موسى الله تعالى كَشْفَ ما بهم من العذاب نكثوا في العهد، فأغرقهم الله، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٣٤-١٣٦].

٥- وجوب الثقة بوعد الله، فقوم لموسى لما صار البحر أمامهم وفرعون خلفهم قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]. فقال موسى بإيمان قوي وثقة بوعد الله: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]. فأمره الله أن يضرب بعصاه البحر

فانفلق وسار موسى وقومه وأنجاهم الله وأهلك فرعون وقومه.

٦- سعة رحمة الله، فقد جاء عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: «**لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فقال جبريل: يا محمد، فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه، مخافة أن تدركه الرحمة**» [رواه الترمذي]، وهذا مع ما اقترف فرعون من ظلم ومع تجبُّره وتكبُّره وطغيانه وادِّعائه الألوهيَّة، ولكن الله رحيم يتوب على من تاب، ولكن بشرط أن تكون التوبة في الوقت المسموح بها؛ لأن التوبة لا تُقبل إذا طلعت الشمس من مغربها، وإذا غرغرت الروح، ولذلك عندما قال فرعون: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]. قال الله تعالى: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس:٩١].

٧- وجوب أخذ العظة والعِبْرة من قصص الأمم السابقة؛ لأن من لم يتَّعظ بغيره سيكون عِبْرةً لغيره، ولذلك عندما أهلك الله فرعون قال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس:٩٢].

n

قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع بني إسرائيل بعدما أنجاهم الله من فرعون

n

لما أنجى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبني إسرائيل من فرعون وقومه، وتجاوزوا البحر، مروا على قوم يعبدون الأصنام، فافتتن بنو إسرائيل بما يفعله هؤلاء القوم، فقالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]. أي يريدون أصنامًا يعبدونها كما يفعل أولئك القوم، فردَّ عليهم موسى بقوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:١٣٨-١٤٠]. فموسى يبيِّن لقومه جهلهم، ويُبيِّن لهم أن هؤلاء القوم على باطل، ثم يقول لقومه: كيف تعبدون غير الله وقد فضَّلكم على العالمين؟! ثم يُذكِّرهم الله بنعمته عليهم إذ أنجاهم من آل فرعون يُقتِّلون أبناءهم ويسبون نساءهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف:١٤١].

ثم بعد ذلك واعد الله موسى ثلاثين ليلة؛ لإنزال الكتاب عليه وهو التوراة، ثم أتمّها بعشر فصارت أربعين ليلة، فأمر موسى أخاه هارون أن يخلفه في بني إسرائيل، وذكَّره بأن يصلح حالهم، قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ

لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢]، ولما جاء موسى لميقات ربه أراد رؤية الله عَزَّوَجَلَّ فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٤٣]. فقال له الله مبيِّنًا له عدم قدرته وتحمُّلِه لرؤيته تعالى: ﴿لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣]. فلمَّا تجلَّى الله للجبل الصلب القوي لم يتحمَّل فصار كثيبًا من الرِّمال، وحينها أُغشي على موسى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]، فلمَّا أفاق موسى علم أنه لن يثبت لرؤية الله، ولن يستطيع رؤية الله فنزَّه الله واستغفر وقال: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]. وبعدها قال الله لموسى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤]. فالله اختار موسى لرسالته، فالرسالة ليست مرتبةً يصل إليها الإنسان بعد عمل معيَّن، بل هي اصطفاء واختيار من الله، وخصَّ الله موسى بكلامه، فموسى هو كليم الله، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، فأمر الله موسى أن يأخذ ما أعطاه من الرسالة وما أنزل عليه من كتاب وأمره أن يكون من الشاكرين لنعمه.

ثم سأل الله موسى بقوله: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٨٣]؟ فقال موسى: ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:٨٤]. أي هم بقربي، وعجلت إلى رضاك يا ربي، فأوحى الله إليه: أن قومه قد ضلُّوا وعبدوا

العجل، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه:٨٥]. وحينها كان بنو إسرائيل قد فُتنوا وعبدوا العجل من دون الله.

العِبْرة:

١- يجب أن يواجه الإنسان نِعَم الله بالشكر، ولذلك لمَّا أنجى الله بني إسرائيل من فرعون وقومه، افتتنوا بالقوم الذين يعبدون الأصنام، وطلبوا من موسى أن يجعل لهم صنمًا يعبدونه، فقال لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]. أي أنه يجب عليهم أن يشكروا الله على نعمته عليهم، بإخلاص العبادة له، وليس بإشراك معه غيره في العبادة.

٢- لا يُمكن لأحد رؤية الله تعالى في الدنيا، كما أن الجبل لم يحتمل ذلك قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]، ولكن هذا لا يعني أن المؤمنين لن يروا ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الجنة، ودلَّ على ذلك ما جاء عن جرير بن عبد الله قال: كنا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة، يعني: البدر، فقال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغْلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا**» [رواه البخاري].

n

قصة عبادة بني إسرائيل للعجل

n

بعد أن لقي موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أوحى الله إليه أنه ابتلى واختبر قومه فعبدوا العجل، قال تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه:٨٥]، والابتلاء هو أنَّ بني إسرائيل قد استعاروا الحُلي من القبط وأخذوها معهم، وبعد أن تجاوزوا البحر وذهب موسى للقاء الله، أخذ السَّامري هذه الحُلِي فصاغها على شكل عجل، وقد أراه الله فتنةً له أثر الرسول وهو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فأخذ قبضةً من هذا الأثر، فإذا وضعه على شيء صار به حياة، فوضع من هذا الأثر على العجل فصار للعجل خوار، وقد نهاهم هارون عن عبادة العجل، فلم يطعه بني إسرائيل وكادوا يقتلونه، ورفضوا ترك عبادة العجل حتى يرجع إليهم موسى، فلما رجع موسى كان غضبانًا وألقى الألواح من يده وأخذ برأس أخيه ولحيته يظنه قد قصَّر في نهيه لبني إسرائيل عن عبادة العجل، فأخبره هارون أنه قد نهاهم فلم يطيعوه وكادوا يقتلونه، فعاد موسى للسَّامري وسأله عن فعله، فأخبره بأمر الحُلي وأثر الرسول، فأخذ موسى العجل وحرَّقه ورماه في البحر، وأخبر السَّامري أن عقوبته بأنه لا يقرب منه أحد، وأنَّه سيبقى وحيدًا عقوبة له على فتنة بني إسرائيل عن عبادة الله، وأنه سيجازيه الله على عمله، قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾

قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٨٦-٩٨].

العِبْرة:

١- أنَّ الله يبتلي عباده؛ ليعلم مَن الصادق في إيمانه مِن الكاذب، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٢-٣]، وقد ابتلى الله بني إسرائيل فعبدوا العجل، فيجب على الإنسان أن يثبت على طاعة الله، ويعلم أن الحياة ابتلاء واختبار، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك:٢].

٢- يجب على الإنسان أن يحذر من وساوس الشيطان وما تسوِّل له النفس الأمارة بالسوء، وأن يلتزم بأمر الله، لأنه إذا خالف أمر الله وأطاع الشيطان وأطاع هوى نفسه فإنه سيقع في الضَّلال، ولذلك فإنَّ السَّامري اتَّبع ما تسوِّل له نفسه، ولم يتَّبع أمر موسى ولا أمر هارون بعد أن استخلفه موسى على بني إسرائيل، وكانت النتيجة أنهم عبدوا العجل، فالشيطان عدو ولا يأمر الإنسان بخير، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]، واتباع الهوى يكون سببًا في الضَّلال، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣]، والحل أن تطيع الله ورسوله فتسلم من وساوس الشيطان وتسلم من اتباع الهوى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢٠].

٣- الله هو المستحق للعبادة، فهو السميع البصير، وهو القادر على كل شيء، وهو خالق هذا الكون وموجده، وهو الرازق وهو المدبِّر لهذا الكون، وله الأسماء الحسنى والصفات العُلى، وكل معبود سواه فهو عاجز، ولا يملك نفعًا ولا ضرًّا، ولذلك قال تعالى لمَّا عبد بنو إسرائيل العجل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:٨٩]، فمن الذي نفعهم وأنقذهم من بطش فرعون؟ أليس الله؟ فلماذا يعبدون إله غيره لم ينفعهم ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا؟

وهذا تذكير لهم من الله بنعمه عليهم، وما أسرع أن كفروا بالله وجحدوه.

فلذلك كل معبود من دون الله فهو عاجز عن النفع والضر، ويوم القيامة سيتبرأ ممن عبدوه قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٣-١٤].

n

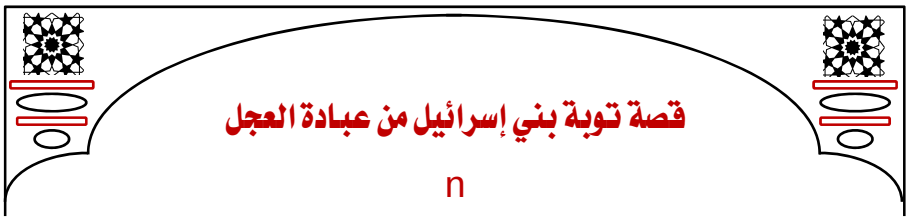

قصة توبة بني إسرائيل من عبادة العجل

n

بعدما رجع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من ميقات ربه إلى بني إسرائيل، وحرَّق العجل ورماه في البحر، قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٥٤]. فكانت توبتهم من عبادة العجل أن يقتل بعضهم بعضًا، ثم عفا الله عنهم، وبعد توبة بني إسرائيل اختار موسى سبعين رجلًا من خيارهم؛ ليعتذروا إلى الله من عبادة العجل، ولكن هؤلاء السبعين تجرَّؤوا على الله، فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥]. فرجفت بهم الأرض فهلكوا، فاعتذر موسى لربه من فعلهم وتوسَّل إليه أن يعفو عنهم وقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٥].

فعفا الله عنهم فأحياهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥-٥٦]، ثم بعد ذلك أخذ الله ميثاقًا وعهدًا من بني إسرائيل أن يؤمنوا بما جاء في التوراة، فلم يقبلوا، فرفع الله الجبل فوقهم، فإن لم يقبلوا وقع عليهم الجبل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ

وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾ [البقرة:٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٧١].

العِبْرة:

١- إذا أذنب الإنسان ذنبًا، فإنه يجب أن يبادر إلى التوبة، فقد أمر الله بني إسرائيل أن يتوبوا من عبادة العجل، ولذلك فإن الله يحب التوَّابين فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، والتوَّاب هو كثير التوبة والاستغفار والرجوع إلى الله، فكلما أذنب ذنبًا تاب واستغفر.

٢- لا يُمكن لأحد رؤية الله عَزَّوَجَلَّ في الدنيا، ولكن المؤمنين يرون الله في الجنة، كما جاء في حديث جرير بن عبد الله -قال: كنا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة، يعني: البدر، فقال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، فافعلوا**» [رواه البخاري].

n

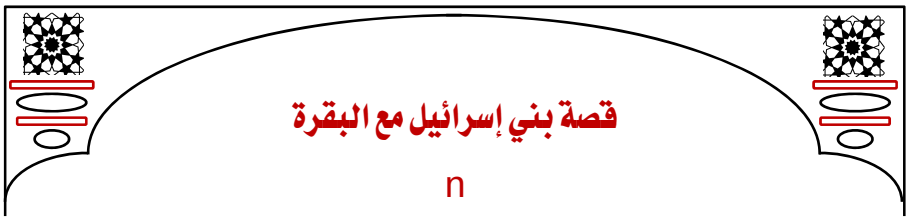

قصة بني إسرائيل مع البقرة

n

عندما كان بنو إسرائيل في أرض التِّيه قُتل رجل منهم، ولم يُعرف من القاتل، فرجع بنو إسرائيل إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فسألوه أن يسأل الله عَزَّوَجَلَّ من القاتل؟ فقال لهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما جاء في الآيات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾، فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة،٦٧]؟ أي هل تستهزئ بنا؟ فقال موسى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧]. أي إنَّما أُخبركم بما أمرني ربي، ولست جاهلًا لكي أقول لكم غير الحق. فأخذ بنو إسرائيل يسألون عن تفاصيل هذه البقرة فقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ [البقرة:٦٨]؟ أي ما هو سنُّها؟ فقال لهم موسى: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة:٦٨]. أي افعلوا ما أمرتكم به وخذوا بقرة بنفس السِّن الذي حدَّده الله لكم لا بقرة كبيرة ولا صغيرة، ولا تكلِّفوا أنفسكم بكثرة الأسئلة عن التفاصيل. فلم يستجيبوا له وأخذوا يسألون عن لونها فقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة:٦٩]، فقال لهم موسى: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة:٦٩]. فلم يستجيبوا مباشرة، بل زادوا في السؤال عنها حتى شدَّد الله عليهم فقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٧٠]. فقال لهم موسى: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ

﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة:٧١]. أي بقرة لا تحرث الأرض ولا يسقى عليها الزرع، وسالمةٌ من جميع العيوب.

وحينها استجابوا بعد أنْ أكثروا من الأسئلة عن هذه البقرة حتى شدَّد الله عليهم وبحثوا عن هذه البقرة حتى وجدوها واشتروها بأغلى الأثمان فقالوا: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة:٧١]. ثم قال الله عنهم: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١]، ثم ذبحوها وأمرهم الله تعالى أن يضربوه ببعض هذه البقرة قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة:٧٣]، ففعلوا فأحياه الله تعالى وقال: قتلني فلان. ثم رجع إلى موتته، قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَـْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:٧٢].

العِبرة:

١- أنَّ بني إسرائيل شدَّدوا على أنفسهم بكثرة السؤال عمَّا أمرهم الله تعالى به، وهو ذبح البقرة، فشدَّدَ الله عليهم، حتى بحثوا عن بقرة بصفاتها التي سألوا عنها فاشتروها بوزنها ذهبًا.

فلو أنَّهم امتثلوا للأمر مباشرة وذبحوا أي بقرة، لكانوا قاموا بما أمرهم الله به، وأخذوا أي بقرة بثمن مثلها، ولكن شدَّدوا في السؤال فشدَّد الله عليهم.

فلذلك كانت كثرة السؤال مذمومة، وقد قال ﷺ: **«ما نهيتُكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فَأْتُوا منه ما استطعتم؛ فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرةُ مسائلهم، واختلافُهم على أنبيائهم»** [رواه البخاري].

٢- أنَّ البعث يوم القيامة حق قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن:٧].

وقد جعل الله هذه القصة دليلًا على البعث والنشور يوم القيامة، فعندما أحيا الله الرجل المقتول من بني إسرائيل قال: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣].

n

قصة موسى والخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

n

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:٦٠-٦٤].

والقصة كما جاء عن ابن عباس: أنه تَمَارَى هو والحر بن قيس الفزاري في صاحب موسى قال ابن عباس: هو خضر، فَمَرَ بهما أُبَيُّ بن كعب فدعاه ابن عباس فقال: إني تَمَارَيْتُ أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لُقِيِّهِ، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال نعم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بينما موسى في ملإٍ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحدا أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إليه، فجعل له الحوت آية وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكان يتبع أثر الحوت في البحر، فقال لموسى فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة، فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، فقال موسى: ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا، فوجدا خضرا فكان من شأنهما الذي قص الله في كتابه**» [رواه البخاري].

فانطلق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فتاه، حتى نسي الفتى الحوت فرجعا إلى المكان الذي نسيه فيه، فوجدا الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان بينهما الحديث الذي أخبر الله عنه في كتابه فقال: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف:٦٥-٧٠]، وبعدها انطلق موسى مع الخضر، وجاء في صحيح البخاري: «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينة، فمرت بهما سفينة، فكلموهم أن يحملوهما، فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول، فجاء عصفور، فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر يا موسى: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر، فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة، فنزعه، فقال موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟! قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا، فكانت الأولى من موسى نسيانا فانطلقا، فإذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده، فقال موسى: أقتلت نفسا زكية بغير نفس؟ قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا؟ قال ابن عيينة: وهذا أوكد فانطلقا، حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه، قال الخضر بيده فأقامه، فقال له موسى: لو شئت لاتخذت

عليه أجرا، قال: هذا فراق بيني وبينك»، قال النبي ﷺ: «**يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما**» [رواه البخاري].

وبعد ذلك أخبر الخضر موسى بتأويل ما رآه ولم يستطع عليه صبرًا، قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:٧٨-٧٩]، فالسفينة كانت لهؤلاء القوم المساكين الذين ركبوا معهم، وكان وراءهم ملك ظالم يأخذ كل سفينة سليمة، فأحدث الخضر بها عيبا لكي لا يأخذها الملك الظالم، وقال الخضر: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف:٨٠]، أي هذا الغلام الذي قتله الخضر كان قد طبع الله على قلبه ليكون من الكافرين، وبقاؤه سوف يسبب لوالديه المشقة وسيرهق والديه بالكفر، ثم قال: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٨٢]، أي وكان ذلك الجدار الذي كاد أن يسقط تحته كنز، وهو لغلامين يتيمين في المدينة، ولو سقط الجدار لظهر الكنز وقد يسرقه أهل القرية، فهم أهل لؤم فكان إصلاح هذا الجدار حفظ لمال هذين الغلامين اليتيمين، ثم قال الخضر بعد ذلك: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٨٢]، أي هذا الذي فعلته لم يكن اجتهادًا منِّي، بل هو وحي من الله تعالى.

العِبْرَة:

١- عِلْمُ البشر في عِلم الله تعالى لا يساوي شيء، وانظر لقول الخضر لموسى: «ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر» [رواه البخاري]، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

٢- الحرص على طلب العلم، فهذا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نبيٌّ، ولم يمنعه ذلك من الرحلة في طلب العلم حتى يلقى الخضر، ثم لما وجد الخضر ألحَّ عليه حتى يرافقه، والخضر يقول له: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:٦٧]، ومع ذلك حرص موسى على مرافقته ليتزود من العلم.

٣- التواضع من أسباب نيل العلم، فهذا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أعلم من الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومع ذلك لم يتكبَّر، بل تواضع وأطاع الخضر حتى يحصل له العلم الذي يريد.

٤- طلب العلم يحتاج إلى الصبر، ولذلك كان الخضر يكرر هذا الأمر على موسى منذ أن لقيه، ويكرره عليه كلما أنكر عليه موسى، وفي هذا إشارة إلى أنَّ طلب العلم يحتاج إلى الصبر، فالعلم لا يُحصِّله الطالب في يوم وليلة، بل يحتاج إلى الوقت ويحتاج إلى ملازمة العالم، ويحتاج إلى مطالعة الكتب والمراجع، وكل ذلك يحتاج إلى الصبر من الطالب والعزيمة على تحصيل العلم.

٥- قضاء الله تعالى كله خير، وإن كان في ظاهره مصيبة، فخرق السفينة، وقتل الغلام، كان فيها الخير، ولا شك أننا لا نعلم ذلك الغيب، ولكن يجب أن نؤمن بأن كل قضاء يقضيه الله فهو خير.

٦- صلاح الوالدين يكون سببًا في حفظ أبنائهم، وانظر للغلامين الذين أصلح الخضر الجدار الذي تحته كنزهما قال الله تعالى في سبب ذلك: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:٨٢].

n

قصة بني إسرائيل في أرض التِّيه
حتى دخول الأرض المقدَّسة ووفاة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

n

بعد أن أخذ الله من بني إسرائيل أن يؤمنوا بالكتاب، فقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة:٩٣]. وعصيانهم لأمر الله هو أنَّهم عصوا أمر الله لهم بدخول الأرض المقدَّسة -وهي بيت المقدس- وقتال الجبابرة الذين يسكنونها، وقد حثَّهم موسى على القتال والجهاد فرفضوا، وذكَّرهم رجلان مؤمنان منهم بأنهم بمجرد دخولهم الأرض المقدَّسة سوف ينتصرون؛ لأن الله معهم فرفضوا، فعاقبهم الله بأنهم يتيهون في الأرض أربعين سنة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة:٢٠-٢٦].

فأصبح بنو إسرائيل ومعهم موسى في أرض التِّيه، وليس معهم طعام ولا شراب ولا ظل يتظللون به، فجعل الله الغمام يظلِّلهم من حرارة الشمس، وأعطاهم من الطعام المنَّ وهو من أطيب الطعام، وأعطاهم الله السَّلوى وهو نوع من الطيور، قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧]، وأمَّا الشراب فقد طلب موسى من ربه الشراب لقومه، فأمره الله أن يضرب بعصاه الحجر، فانفلق منها اثنا عشرة عينًا، لكل سبطٍ من أسباط بني إسرائيل عينًا يشربون منها، لأن أسباط بني إسرائيل اثنا عشر، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠].

ولكن بني إسرائيل احتقروا نِعَم الله عليهم، فطلبوا من موسى النباتات التي تخرج من الأرض، من الخيار والعدس والثوم والبصل، فتعجَّب منهم موسى، كيف أنَّهم يستبدلون الطَّعام الطيِّب الذي أعطاهم الله وهو المنّ والسَّلوى بما طلبوه؟! فالمنّ والسَّلوى لا يحصل عليه حتى أهل المدن، وأمَّا الطعام الذي طلبوه فهو موجود في كل مصرٍ من الأمصار، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة:٦١].

وبعد انقضاء الأربعين سنة التي حرَّم الله فيها دخول الأرض المقدَّسة على بني إسرائيل، أذن الله لموسى ومن بقي معه من بني إسرائيل بدخول الأرض المقدَّسة، ولكنَّ موسى توفَّاه الله قبل دخولها، فسأل الله أن يدنيه منها، فقد جاء عن أبي هريرة قال: أُرسل ملك الموت إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما جاءه صكه ففقأ عينه، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت. قال: فرد الله إليه عينه وقال: ارجع إليه فقل له: يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة. قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن. فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، فقال رسول الله ﷺ: «**فلو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر**» [رواه البخاري].

وأمر الله بني إسرائيل أن يدخلوا الباب سجَّدًا وهم يقولون (حِطَّةٌ)، وهو سؤال الله أن يحطَّ عنهم خطاياهم ويغفر لهم، فبدَّلوا القول وصاروا يقولون: حبَّة في حنطة. فغضب الله عليهم وأنزل على الذين بدَّلوا القول عذابًا أليمًا من السماء بسبب فسقهم ومعصيتهم لله قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ

ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة:٥٨-٥٩].

العِبْرة:

١- يجب على الإنسان طاعة الله ورسوله في كل أمر؛ لأن ما يصيب الناس من بلاء فهو بسبب معصيتهم لله، فهؤلاء بنو إسرائيل رفضوا قتال الجبابرة فتاهوا في الأرض أربعين سنة عقوبةً لهم، وبدَّلوا قول الله، فأنزل عليهم رجزًا من السماء، فلذلك قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، وأخبر -سبحانه- أن الناس لو آمنوا ولم يعصوه ولم يخالفوا أمره لفتح عليهم من بركات السماء والأرض، ولكن بسبب معصيتهم عاقبهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

٢- الموت أمر محتوم لا مفرَّ منه، ولذلك لمَّا زاد الله موسى إذا وضع يده على متن ثور كل شعره بسنة في عمره -ولا شك أنها ستكون سنين كثيرة-، ولكن لمَّا علم موسى أن نهايتها الموت، فأذن لملك الموت أن يقبض روحه، لأن ملك الموت يستأذن الأنبياء قبل أن يقبض أرواحهم، لقوله ﷺ: «**إنه لم يُقْبَض نبي قطّ حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يُخَيَّا أو يُخَيَّر**» [رواه البخاري].

n

قصة طالوت وجالوت

n

كان هناك ملأٌ من بني إسرائيل من بعد موسى قد انتصر عليهم عدوُّهم وأخرجهم من ديارهم، فطلبوا من نبيِّهم أن يختار لهم ملكًا يجتمعون حوله، ويكون لهم جيش قادر على هزيمة أعدائهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٦]، فقال لهم نبيهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾ [البقرة:٢٤٦]. أي فلو كُتب عليكم القتال قد لا تستطيعون، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة:٢٦٤]. فذكروا أنَّ الدَّافع لديهم للقتال موجود، وهو أنّهم قد أُخرجوا من ديارهم وأخذ العدو أبناءهم أسرى لديهم، فهم والحالة هذه مستعدُّون للقتال لاستعادة ديارهم وأبنائهم، فلمَّا كَتَب الله عليهم القتال تولَّوا ورجعوا عن رأيهم إلَّا قليلًا منهم ثبتوا على رأيهم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٤٦].

وبعد ثبات هذه الفئة القليلة منهم، اختار الله لهم رجلًا اسمه (طالوت)؛ ليكون ملكًا عليهم يجتمعون حوله، ويكون لهم جيش قادر على هزيمة الأعداء قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة:٢٤٧]، ولكنَّ هذه الفئة القليلة احتجُّوا على اختيار الله

لهم طالوت فقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [البقرة:٢٤٧]. فبيَّن لهم نبيُّهم أنَّه أصلح للملك لما وهبه الله من المواهب، فقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧]. وأعطاهم نبيُّهم آية تدلُّ على اختيار الله لطالوت ملكًا فقال لهم: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٤٨].

أي تجدون تابوتًا يحتوي على بعض مما كان عند موسى وهارون، فتسكن نفوسكم وتتبعون ملككم، فلمَّا وجدوا هذه الآية اطمئنَّت نفوسهم وتبعوا ملكهم وتأهَّبوا للقاء عدوِّهم.

فلمَّا انطلق طالوت بالجنود الذين تبعوه، أخبرهم بأنَّ الله سيبتليهم ويختبر صبرهم على لقاء عدوِّهم، والابتلاء هو أنَّهم سيجدون في طريقهم نهرًا لا يجوز لهم الشرب منه، إلَّا أن يأخذ كل واحدٍ منهم غَرفةً بيده ويشربها فلا بأس في ذلك، فلمَّا وصلوا إلى النَّهر شربوا منه إلَّا قليلًا منهم، فكان كلُّ من شرب من النهر رجع عن القتال، ولم يتبقَّ مع طالوت إلَّا فئةً قليلة ثبتوا وأحسنوا ظنَّهم بالله بأنَّه سينصرهم على عدوِّهم وبأنَّهم سيصبرون على القتال والله مع الصابرين، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا

مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

فلمَّا التقوا بجيش عدوِّهم جالوت دعوا الله بقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠]. فثبَّتهم الله وأعانهم ونصرهم على عدوِّهم وقتل داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ جالوت وكان قائدهم، فجمع الله لداود بعد ذلك الملك والنبوة وأعطاه العلم والحكمة قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٥١].

العِبْرة:

١- أهمِّية ولاية الأمر، وأن يكون للناس وليًّا للأمر يكون قائدًا لهم فيرعى مصالحهم ويدافع عن حقوقهم، ووجوب طاعة وليّ الأمر وعدم مخالفته، ففي ذلك قوَّةٌ للأمَّة واجتماعٌ للكلمة وتوحيدٌ للصَّف ونُصرةٌ على الحق، فلهذا لمَّا اختلف بنو إسرائيل في اختيار الملك عليهم والقائد لهم، لم يستطيعوا ملاقاة عدوِّهم ولا الانتصار عليه، فلذلك طلبوا من نبيِّهم أن يختار لهم ملكًا؛ لكي يجتمعوا حوله ويقودهم لهزيمة أعدائهم.

ولهذا فقد أمر الله بطاعة ولي الأمر وعدم مخالفته فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء:٥٩]، وحرَّم الخروج

عليه فقال ﷺ: «من خَلع يدًا من طاعة لَقِيَ الله يوم القيامة ولا حُجَّةَ له، ومن مات وليس في عُنُقِه بَيْعَة مات مِيتة جاهليَّة» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «ومن مات وهو مُفَارِق لِلجَماعةِ، فإنَّه يمُوت مِيتَة جاهليَّة» [رواه مسلم].

٢- الابتلاء سُنَّة إلهيَّة ليعلم الله الصادق من الكاذب، ولذلك ابتلى الله جنود طالوت بالنهر فشربوا منه إلا قليلًا منهم، ولذلك بيَّن الله في كتابه العزيز هذا الأمر فقال: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٢-٣].

٣- من فضائل الصَّبر أنَّ الله يكون مع الصابرين، فيُؤيِّدهم بنصره وتوفيقه ويُمكِّن لهم في الأرض، ولذلك لما ثبتت الفئة القليلة مع طالوت كانوا مؤمنين بقدرة الله، وأنَّه سيكون معهم وسينصرهم فقالوا: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩]، فكان لهم النَّصر والغلبة بإذن الله.

٤- في حال الشدائد يجب على الإنسان اللُّجوء إلى الله تعالى لأنه القادر على أنْ يُنجيه من كربه وشدَّته، ولذلك لجأ إلى الله طالوت وجنوده ودعوا الله أن ينصرهم عندما لاقوا عدوَّهم وقد كانوا أقوى منهم في القوَّة المادِّيَّة فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠]. فنصرهم الله على عدوِّهم.

n

قصة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ

n

بعد أنْ قتل داودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جالوتَ، أعطاه الله الملك والنبوة، وكان علاوةً على ذلك عابدًا كثير التوبة والرجوع إلى الله، قال تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧]، أي كثير العبادة والرجوع إلى الله، وقال ﷺ: «**أحب الصيامِ إلى الله صيامُ داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه**» [رواه البخاري].

وقد أنزل الله عليه الزَّبور قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء:٥٥]، وكان صوته جميلًا عندما كان يقرأ الزبور؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ لأبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أُوتيت مزمارًا من مزامير آل داود**» [رواه مسلم]، وهذا يدل على جمال صوت داود عندما كان يقرأ الزبور، ولذلك كانت الجبال والطير تُسبِّح معه قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٨-١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠]، ومن نِعَم الله على داود أنَّه ألان له الحديد، فكان يعمل الدُّروع التي يتَّقي بها المُحارب في المعارك قال تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ:١١]، فكان داود

يعمل بيده ويأكل من كسب يده في بيع تلك الدُّروع، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أكل أحد طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده**» [رواه البخاري].

العِبْرة:

١- وجوب عبادة الله على علم وبصيرة، ولذلك مدح الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه كان عابدًا لله على علم، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧]، أي كثير العبادة لله، ولكن كانت عبادته على علم وكانت وفق ما شرعه الله له لأن الله تعالى قال عنه: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ [ص:٢٠]. أي العلم، فلذلك يجب على المسلم أن يخلص العبادة لله على وفق ما شرعه الله وعلى سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكي تُقبل منه، وهذين هما شرطا العبادة، فإذا خالف المسلم أحد هذين الشَّرطين لم تُقبل عبادته وكانت مردودةً عليه، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**» [رواه البخاري]، أي من كان عمله وعبادته مُخالفةً لسنَّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعبادته غير مقبولة.

٢- جميع المخلوقات من جمادات وحيوانات تسبِّح الله لقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤]، فنحن لا نفقه تسبيح الحيوانات ولا الجمادات، ولكن من نِعم الله تعالى على عبده ورسوله داود أنَّه أسمعه تسبيح الجبال والطَّير، وهذه كرامةٌ لنبي الله داود، فإذا سَمِع الجبال

والطير تُسبِّح معه زاد إيمانه ويقينه بالله، وزاد في تسبيحه لله وصار كثير العبادة قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٨-١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠].

٣- فضيلة العمل للحصول على الرزق الحلال، ولذلك قال ﷺ: «**ما أكل أحد طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده**» [رواه البخاري]. ولذلك أمر الله الإنسان بالعمل والسعي في الأرض لكسب الرزق الحلال فقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:١٠]، فبعمل الإنسان يحصل على المال وبه يستغني الإنسان عن سؤال الناس، فاليد العليا خير من اليد السفلى فقد قال ﷺ وهو على المنبر: «**اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة**» [رواه البخاري]، وسؤال الناس أموالهم يزيل الحياء من وجه الإنسان، ولذلك قال ﷺ: «**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مُزْعَة لحم**» [رواه البخاري]. ولذلك توعَّد رسول الله ﷺ من يسأل الناس أموالهم تكثُّرًا فقال: «**من سأل الناس أموالهم تكثُّرًا فإنما يسأل جمرًا فليستقل أو ليستكثر**» [رواه مسلم].

n

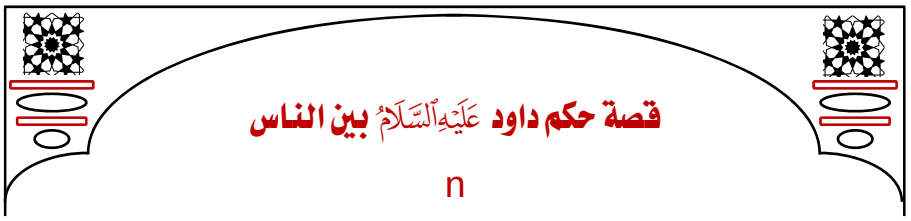

قصة حكم داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بين الناس

n

لَمَّا جمع الله تعالى لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ بين الملك والنبوَّة صار داود يحكم بين الناس، وقد أعطاه الله العلم الذي يحكم به بين الناس بالعدل، وأعطاه القوة التي بها يقوم بها المُلك وينفِّذ بها تلك الأحكام الصادرة عن الشرع فقال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠]، ولذلك صار الناس يتحاكمون إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان من المتحاكمين رجلان صَعَدَا من سور المحراب الذي كان يتعبَّد فيه داود، فلمَّا دخلوا على داود فَزِع منهم؛ لأنهم لم يأتوا من الباب؛ ولأنهم أتوا في غير موعد الحكم بين الناس، بل أتوه في وقت عبادته لله قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [ص:٢١-٢٢]، فقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ﴾ [ص:٢٢].

ثم ذكروا له حاجتهم وهي أنهم يريدونه أن يحكم بينهم فقالوا: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص:٢٢]. ثم تكلَّم أحدهما فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣]. فيشتكي من أخيه أنَّه له تسع وتسعون نعجة وله نعجة واحدة، ثم يطلب منه نعجته أن يعطيها له، فقال داود: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤]. أي ليس له الحق في

طلب نعجتك مع نِعاجه، ثم ذكَّره بأنَّ البغي والظلم يحصل مع الشُّركاء، فبعضهم يظلم الآخر إلَّا المؤمنين الصادقين. ثم بعد ما قال لهم مقالته علم داود أنَّ هذا ابتلاء من الله، فاستغفر الله وسجد وتاب قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص:٢٤]، فتاب الله عليه وأخبر أنه من عباده المقرَّبين قال تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص:٢٥]. ثم قال الله تعالى لداود: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦]. أي إنَّ الله أعطى داود النبوَّة والعلم الذي يحكم به بين الناس، وأعطاه الملك الذي يستطيع به إنفاذ ذلك الحكم، ثم أمره أن يحكم بين الناس بالحق، ويكون ذلك طريقه في الحكم، وألَّا يتَّبع أهواء الناس، لأن الأهواء مخالفة للحق والعدل.

وحَكَمَ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بين رجلين أحدهما صاحب زرع والآخر صاحب غنم، قال تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٨]، والذي حصل بينهما هو أن الغنم أكلت زرع الرَّجل، فحكم داود بالغنم لصاحب الزَّرع، وحكم سليمان بأنَّ صاحب الزَّرع يأخذ الغنم ويستفيد من لبنها ولحمها وصوفها، وصاحب الغنم يقوم بحرث أرض صاحب الزرع وزراعتها وريِّها والقيام عليها حتى تثمر، ثم يُعطيها لصاحبها ويأخذ غنمه، فكان قضاء سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الصواب قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، ثم أثنى الله على داود وسليمان وزكَّاهما فقال: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:٧٩].

وحَكَمَ داود بين امرأتين ذكر قصتهما رسول الله ﷺ فقال: **«بينما امرأتان معهما ابناهما، جاء الذِّئب، فذهب بابن إحداهما، فقالت هذه لصاحبتها: إنَّما ذهب بابنك أنت. وقالت الأخرى: إنَّما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان ابن داود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسِّكِّين أَشُقُّهُ بينكما. فقالت الصُّغرى: لا، يرحمك الله هو ابنها. فقضى به للصُّغرى»** [رواه البخاري].

العِبْرة:

١- من الحِكم في ولاية الأمر أنَّ ولي الأمر يحكم بين الناس، فينتصر للمظلوم من الظالم ويرد الحقوق إلى أصحابها، فإذا لم يكن للناس ولي للأمر ضاعت الحقوق وأكل القوي الضَّعيف وأخذ حقه ولا يوجد من ينتصر له، ولابد للمُلك من قوَّة لكي يستطيع ولي الأمر من تنفيذ الأحكام الصادرة عن الشرع، ولذلك قال تعالى عن داود: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ [ص:٢٠]. أي أعطيناه القوَّة اللَّازمة لقيام المُلك وتنفيذ الأحكام.

٢- القضاء بين الناس لا بد أن يكون بالعدل والحق، ولذلك أمر الله داود أن يحكم بالحق ولا يتَّبع الهوى قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦]. والخلاف بين الناس أمر جبلِّي يحصل بينهم، ولابد من فصل القضاء بينهم، فيجب أن يكون ذلك بالحق والعدل. والحكم بالحق والعدل يكون بالتحاكم إلى

كتاب الله وإلى شرع الله، وقد أمر الله بذلك فقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

٣- العالم والقاضي إذا اجتهد للوصول إلى الحكم الصحيح ولم يُوفَّق في ذلك فلا يجوز التنقُّص منه أو الإساءة إليه أو إساءة الظَّن به، فالله تعالى أثنى على داود وزكَّاه مع أنَّ الصواب كان مع حكم سليمان فقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:٧٩]. فالعالم مأجورٌ على اجتهاده حتى ولو أخطأ؛ لأنه لم يقصد الخطأ، بل كان يريد الوصول إلى الحق، لذلك قال ﷺ: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**» [رواه البخاري].

n

قصة وفاة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ

n

عاش داود عَلَيْهِ السَّلَامُ مئة سنة، لما جاء عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس، فقال: الحمد لله. فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: يرحمك الله يا آدم. اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملإ منهم جلوس فقل: السلام عليكم. قالوا: وعليك السلام ورحمة الله. ثم رجع إلى ربه فقال: إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم. فقال الله له ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت. قال: اخترت يمين ربي، وكلتا يدي ربي يمين مباركة. ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته فقال: أي رب ما هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذريتك. فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه، فإذا فيهم رجل أضوؤهم أو من أضوئهم، قال: يا رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود، قد كتبت له عمر أربعين سنة. قال: يا رب زده في عمره. قال: ذاك الذي كتبت له. قال: أي رب فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة. قال: أنت وذاك. قال: ثم أُسْكِن الجنة ما شاء الله ثم أُهْبِط منها. فكان آدم يعدُّ لنفسه، قال: فأتاه ملك الموت فقال له آدم: قد عجلت قد كُتِبَ لي ألف سنة. قال: بلى، ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة. فجحد فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته، قال: فمن يومئذ أُمِر بالكتاب والشهود» [رواه الترمذي].

وأمَّا وفاة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال:

«كان داود النبي فيه غيرة شديدة، وكان إذا خرج أغلقت الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع. قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل الدار والدار مغلقة؟ والله لتفتضحن بداود. فجاء داود فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا يمتنع مني شيء، فقال داود: أنت والله ملك الموت، فمرحبًا بأمر الله، فَرَمَلَ داود مكانه، حيث قُبِضت روحه، حتى فرغ من شأنه، وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: أظلِّي على داود، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحًا جناحًا»، قال أبو هريرة: يرينا رسول الله ﷺ كيف فعلت الطير، وقبض رسول الله ﷺ، وغلبت عليه يومئذ المصرحية [رواه أحمد].

العِبْرة:

١- هذه الحياة الدنيا ليست دار مقر بل هي دار ممر، وقد استخلفنا الله فيها لينظر كيف نعمل، فقد قال ﷺ: «إن الدنيا حلوة خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» [رواه مسلم]، ولذلك كتب الله على هذه الدار ومن فيها بالفناء فلذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩]، ومن صفات المتاع أنَّه زائل، فلذلك كان الموت أمر محتوم على جميع المخلوقات قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ

﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

٢- النسيان أمر جبلِّي في طبيعة بني آدم، فقد نسي آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥]، ولكنَّ الله أخبرنا بأن علاج النِّسيان هو ذكر الله فقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف:٢٤].

n

قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ

n

ذكرنا أنَّ الله تعالى جمع لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ الملك والنبوة، فبعد وفاته ورثه ابنه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأعطاه الله الملك والنبوَّة قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦]، وقد أثنى الله على سليمان فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠]، أي كثير التوبة والرُّجوع إلى الله.

وفي يوم من الأيام استعرض سليمان الخيل، وكان فيها من الجمال ما ألهاه عن الصلاة حتى غابت الشمس، وقد جاء عن عائشة قالت: «**قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر، وفي سهوتها سُتْرٌ، فهبت الريح فكشفت ناحية السُّتْرَ عن بنات لعائشة تلعب، فقال: «ما هذا يا عائشة؟»**. فقالت: بناتي، ورأى بينهن فرسا له جناحان من رقاع. فقال: «**ما هذا الذي أرى وسطهن؟**». قالت: فرس. قال: «**وما الذي عليه هذا؟**». قالت: جناحان. قال: «**فرس له جناحان؟**». قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلًا لها أجنحة. قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه» [رواه أبو داود].

فلما ألهت سليمان الخيل عن الصلاة أمر بها فأخذها يقتلها ويضرب أعناقها قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ۖ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص:٣٠-٣٣].

وقد جاء عن أبي هريرة قال: قال سليمان بن داود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: لأطوفن الليلة بمئة امرأة تلد كل امرأة غلاما يقاتل في سبيل الله، فقال له المَلَك: قل إن شاء الله فلم يقل ونسي، فأطاف بهن، ولم تلد منهن إلا امرأة نصف إنسان، قال النبي ﷺ: «**لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان أرجى لحاجته**» [رواه البخاري]، وحينها تاب سليمان إلى الله وأناب قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص:٣٤]، ثم دعا سليمان ربه بقوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص:٣٥]. فاستجاب الله دعاءه وأعطاه مُلكًا عظيمًا، فسخَّر له الرِّيح تنقله حيث أراد، وسخر له الجن يعملون بأمره، فمنهم من يبني له الأبنية، ومنهم من يغوص في البحر ويستخرج له اللؤلؤ، ومكَّنه من عقابهم وحبسهم إذا عصوا أمره، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص:٣٦-٣٨].

واستجاب الله دعاءه، فلن يكون لأحد ملك كملكه فقد قال ﷺ: «**إن عفريتا من الجن تفلت عليّ البارحة؛ ليقطع عليَّ صلاتي، فأمكنني الله منه، فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ فرددته خاسئا**» [رواه البخاري]، وعن أبي الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ فصلى فسمعناه يقول: «**أعوذ بالله منك، ألعنك بلعنة الله**» ثلاثا. وبسط يده كأنه يتناول شيئا، فلما فرغ من الصلاة قلنا يا رسول الله:

سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك. قال: «**إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات**»، ثم قلت: «**ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان، لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدنية**» [رواه مسلم]، وبعد أن أستجاب الله لسليمان دعاءه وأعطاه مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [ص:٣٩]. فزاده الله من كرمه أنَّه لا يُحاسبه في مُلكه، لأنَّ الله قد علم عدله وتقواه.

العِبْرة:

١- كثرة التوبة والاستغفار من أسباب إجابة الدُّعاء، فقد سخَّر لسليمان مُلكًا عظيمًا لمَّا دعاه، واستجاب الله دعاءه بأنه لن يكون مثل هذا المُلك لأحد من بعده، وكان ذلك بعدما أثنى الله على سليمان فقال: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص:٣٠]. أي كثير التوبة والرجوع إلى الله.

٢- يجب على الإنسان ألَّا يُقدِّم أي عمل على الصلاة إذا حضر وقتها، فقد ندم سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وتاب عندما ألهاه استعراض الخيل عن الصلاة فتاب الله عليه واستجاب دعاءه، ولذلك امتدح الله المحافظين على الصلاة في وقتها فقال: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [النور:٣٧-٣٨].

٣- قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤]، ولذلك من أراد أن يفعل شيئًا في المستقبل فيجب عليه أن يقول: سأفعل إن شاء الله.

ولذلك عندما قال سليمان بن داود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: لأطوفن الليلة بمئة امرأة تلد كل امرأة غلاما يقاتل في سبيل الله، فقال له المَلَك: قل إن شاء الله، فلم يقل ونسي، فأطاف بهن ولم تلد منهن إلا امرأة نصف إنسان [رواه البخاري]، قال ﷺ: **«لو قال إن شاء الله لم يحنث، وكان أرجى لحاجته»** [رواه البخاري].

n

قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ملكة سبأ

n

كما ذكرنا أنَّ الله تعالى استجاب لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما دعاه بقوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص:٣٥]. فأعطاه الله ملكًا عظيمًا كما ذكرنا ذلك، وقد علَّم الله لسليمان منطق الطَّير ولغته فكان يفهم كلامهم فقد قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل:١٦].

ثم جمع سليمان جنوده من الجن والإنس والطير وسار بهم، فمرُّوا على وادٍ فيه نمل فقالت إحداهن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨]. فسمعها سليمان وفهم قولها بما علَّمه الله، فتبسَّم ودعا الله أن يوفقه لشكر نعمته وأن ويوفقه للعمل الصالح فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩].

ثم تفقَّد جنوده من الطَّير فلم يرَ الهدهد، فتوعَّده بأن يعذِّبه على غيابه أو يذبحه ما لم يأتيه بحجَّة على غيابه فقال: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٢٠-٢١].

وبعد وقت قصير عاد الهدهد بخبر فقال لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ

بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النمل:٢٢-٢٦]. فأخبر الهدهدُ سليمانَ أنه وجد قوما بسبأ في اليمن، تملكهم امرأة ولها عرش عظيم، ووجدهم يعبدون الشمس من دون الله، وأنكر الهدهد عليهم عدم عبادتهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقال سليمان: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل:٢٧-٢٨].

فأرسل سليمانُ الهدهدَ برسالة، وأمره أن يلقيها لهم، ثم يذهب في مكان ليس ببعيد عنهم؛ ليرى ماذا يفعلون بكتاب سليمان لهم، فلما أوصل الهدهدُ كتابَ سليمان إليهم، جمعت الملكة مستشاريها وأخبرتهم بأمر الكتاب وقرأته عليهم واستشارتهم في الرَّد على هذا الكتاب فقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل:٢٩-٣٢]. فأشاروا عليها بأنَّهم مستعدُّون للقتال، ثم ردُّوا الأمر إليها في اتخاذ القرار المُناسب فقالوا: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل:٣٣]. فكأنَّ الملكة لم تُرِد القتال فقالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل:٣٤].

ثم رأت رأيًا آخر وهو أنْ تُرسل هديَّة إلى سليمان ثم ترى ردَّه فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:٣٥]. فلمَّا وصلت الهديَّة إلى سليمان غضب وتوعَّدهم فقال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل:٣٦-٣٧].

وقد عَلِم سليمان أنهم سيأتونه، فطلب من جنده أن يأتوا بعرش الملكة قبل أن تأتي فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٨]. فاستعدَّ عفريت من الجنِّ بإحضاره قبل أن ينتهي مجلس سليمان فقال: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٩]. ثم قال رجل في مجلس سليمان قد أعطاه الله علمًا من الكتاب يستطيع به إحضار عرش الملكة مع ثقله وبعد المسافة بين الشام واليمن، لأن سليمان كان بالشام، وعرش ملكة سبأ باليمن، ووعد بإحضاره في طرفة عين فقال: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠].

فلمَّا رأى سليمان العرش أمامه قال: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠]. ثم قال سليمان لِجُنْدِهِ: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٤١]. أي ليرى سليمان هل ستعرف عرشها أم لا؟ فلما وصلت قيل لها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل:٤٢]. فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل:٤٢]. لأنه قد اختلف شيئًا قليلًا، فكان جوابها دالًّا على عقلها، فقال سليمان مبيِّنًا فضل الله عليه بما

أعطاه العلم من قبلها: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٤٢]. ولكن منعها من الإيمان بالله لمَّا رأت عرشها ما كانت تعبد من دون الله قال تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل:٤٣]، فأدخلها سليمان الصَّرح وهو بناءٌ من القوارير الشَّفَّافة وتجري من تحته المياه، فلما أرادت أن تدخل حسبت أنها ستضع قدمها على الماء، فكشفت عن ساقيها لئلَّا تبتلَّ بالماء، فقال لها سليمان: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل:٤٤]. وحينها أسلمت ملكة سبأ وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

العِبْرة:

١- كل النِّعم التي يتمتَّع بها الناس فهي من فضل الله، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، فلذلك يجب شُكر الله على نِعَمِه بالقلب واللسان والجوارح، فيكون الشكر بالقلب بالاعتقاد أنَّ المُنعِم هو الله، والشكر باللسان يكون باللهج بشكر الله والثَّناء عليه، والشكر بالجوارح يكون بإخلاص العبادة لله، فبالشُّكر تزيد النِّعم، وكفر النِّعمة سبب في زوالها قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]، ولذلك لمَّا سمع سليمان مقالة النَّملة، استشعر نعمة الله عليه بما أعطاه من ملك، فدعا الله أن يوفقه لشكر نعمته عليه فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩].

٢- يجب التثبُّت من الخبر عند سماعه، فسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا جاءه الهدهد بخبر قوم سبأ لم يستعجل بتصديق الهدهد حتى تثبَّت من صدقه فلذلك قال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]. ولذلك أمر الله تعالى بالتَّثبُّت من الخبر فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

٣- فضل العلم، لذلك استطاع الذي عنده علم من الكتاب أن يُحضر عرش ملكة سبأ في طرفة عين، فالعلم يحفظ الإنسان ويبصِّره بما يفعل.

٤- وجوب المشاورة قبل اتخاذ القرار فقد قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ولذلك من حنكة ملكة سبأ أنها جمعت مستشاريها عندما أرسل عليهم سليمان الرسالة لتشاورهم فيها فقالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:٢٩-٣٢].

n

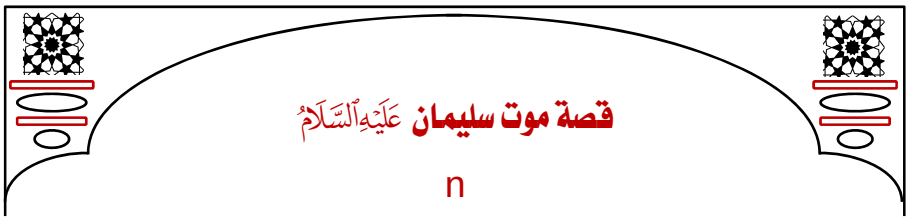

قصة موت سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

n

لما استجاب الله تعالى دعاء سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أعطاه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، ومن ذلك أنَّه سخَّر له الرِّيح تنقله من مكان إلى آخر، وكانت تحمله فتسير به ما يقطعه الناس سيرًا في شهرين تقطعه الرِّيح بسليمان في يوم واحد قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ:١٢]، ثم تُعيده الرِّيح إلى الأرض المباركة وهي الشام قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨١].

وسخَّر الله لسليمان عين النحاس؛ لكي يصنع منها ما شاء ويشكِّله كيف شاء قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ:١٢]، وسخَّر الله لسليمان الجن يعملون بأمره، فكانوا يبنون له الأبنية، ويصوِّرون له التماثيل، ويعملون له القدور العظيمة التي يُصنع فيها الطعام، وتكون راسيةً في مكانها من عِظَمها قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣]، ثم أمر الله سليمان بالشكر، وأخبره أنَّه قليل من العباد يكون شاكرًا قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٢].

وقد افتتن الناس بالجن لقدرتهم الهائلة على العمل لسليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فتظاهر الجن بأنَّهم يعلمون الغيب، فبينما هم يعملون لسليمان وكان متَّكئًا

على عصى قضى الله بموت سليمان، ولكن عيناه لاتزال مفتوحة؛ لأنَّ الروح إذا خرجت من الجسد تبِعها البصر لقوله ﷺ: «**إن الروح إذا قبض تبعه البصر**» [رواه مسلم]، فلمَّا بقيت عيناه مفتوحتان، وكأنَّه ينظر إليهم فلم يعلم الجن بموته، فاستمرُّوا فترةً طويلة يعملون لسليمان وهو قد مات، ولو علموا بموته لتوقفوا عن العمل، وكانت دابَّة الأرض تنخر هذه العصى التي مع سليمان حتى تجوَّفت العصى وأصبحت غير قادرة على حمل سليمان فسقط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حينها تبيَّن كَذِب الجن في ادَّعائهم علم الغيب؛ لأنهم لو علموا بموت سليمان لما استمروا في العمل فترة طويلة بعد موت سليمان، وهم يظنونه حيًّا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ:١٤].

العِبْرة:

١- وجوب شكر الله تعالى على نِعَمه العظيمة التي لا تُحصى، ولذلك أمر الله سليمان بالشكر على النِّعم التي أعطاه، وأخبره أنَّه قليل من عباد الله من يكون شاكرًا للنِّعم قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٢]، ومن شكر الله على نِعمه يكون باستعمال هذه النِّعم في طاعته ومرضاته.

٢- اختصَّ الله تعالى بعلم الغيب، فإن ادَّعى أحدٌ علم الغيب بأي شكلٍ من الأشكال فهو كاذب، لأن الله تعالى قال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥]، ولذلك لمَّا تظاهر الجنّ أمام الإنس بأنهم يعلمون الغيب، أراد الله أن يبيِّن كذبهم للناس، فقضى الله تعالى بموت سليمان، ولم يعلم الجن بأن سليمان قد مات، فاستمرُّوا بالعمل له لفترة طويلة حتى سقط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فظهر كذب الجن.

فالله تعالى وحده من يعلم الغيب، ويُطْلع من شاء من رُسُله على بعض علم الغيب قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦-٢٧]، فهذه عقيـدة يجب أن يعتقدها كل مسلم، وأنْ يُحصِّنَ نفسه عن الشُّبُهات التي يُلقيها عليه كلُّ من يدَّعي علم الغيب.

n

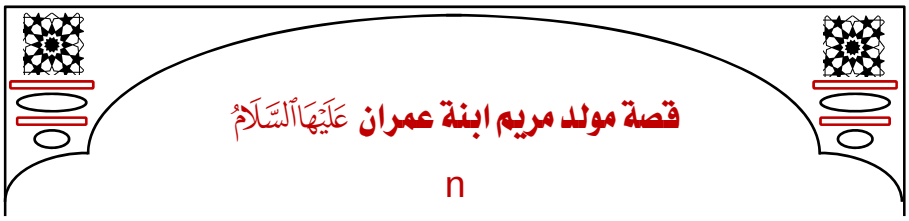

n

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:٣٥-٣٦].

لمَّا حملت امرأت عمران نذرت مولودها لخدمة دين الله وخدمة بيت الله وهو بيت المقدس، ودعت الله أن يتقبل منها، فلما وضعتها فإذا بها أنثى، وقد كانت تتمنى أن يكون المولود ذكرًا؛ ليكون أقوى على الخدمة، وسمَّتها مريم ودعت الله أن يعيذها ويعصمها وذرِّيتها من الشيطان الرجيم، فتقبَّلها الله تعالى واستجاب الله دعاء والدتها، فأعاذها وذريتها من الشيطان الرجيم قال ﷺ: «**ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه**». ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:٣٦][رواه مسلم].

ولما ذهبت بها أمها إلى بيت المقدس، اختصم القائمون عليه أيُّهم يكفل مريم؟ فاقترعوا واتفقوا أن الذي يخرج عليه السهم يكفلها، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران:٤٤]. فخرج السهم على نبي الله زكريا، فكانت في كفالته،

فربَّاها واهتم بها وأنشأها الله نشأة حسنة وكانت في عبادة ربِّها، وكان زكريا كلما دخل عليه المحراب وجد عندها طعامًا، فيسألها: ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ [آل عمران:٣٧]. فتقول له: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران:٣٧]. فالله يرزق من يشاء بغير حساب، قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران:٣٧].

العِبْرة:

١- قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر:٦٠]، فقد أمر الله بالدعاء ووعد بالإجابة، وانظر لامرأة عمران فقد دعت الله أن يتقبل منها نذرها، فتقبل منها، ودعت الله أن يعيذ مريم وذريتها من الشيطان الرجيم، فاستجاب الله لها فقد قال ﷺ: «**ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه**». ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:٣٦][رواه مسلم]،

٢- تقوى الله سبب من أسباب الرزق، ولذلك فإن الله ساق الرزق والطعام إلى مريم، فإذا سألها زكريا عنه قالت: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران:٣٧]. ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران:٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣]، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦]، وهذا لا ينافي أن يبذل الإنسان بقية أسباب الرزق، كالسعي في الأرض لطلب الرزق الحلال قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠]، والعمل سبب من أسباب الرزق، قال ﷺ: «**ما أكل أحدٌ طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيَّ الله داود كان يأكل من عمل يده**» [رواه البخاري]، ونحو ذلك من أسباب الرزق، فيجب على الإنسان بذل جميع الأسباب.

٣- الحرص على تنشئة الصغار تنشئة صالحة، ولذلك حرصت امرأة عمران أن تجعل مريم في خدمة دين الله وبيت الله، لكي تنشأ نشأة صالحة، فإذا نشأ الإنسان على طاعة الله وعلى الصلاح، كان ذلك خيرًا له ولمجتمعه، ويكون من السبعة الذين يُظِلُّهم الله في ظِلِّه يوم القيامة، لقوله ﷺ: «**سبعةٌ يظلُّهم الله تعالى في ظلِّه، يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه**» وذكر منهم: «**وشابٌّ نَشَأَ في عبادة الله**» [رواه البخاري]، والإنسان الصالح ينفع الله به أهله ومجتمعه.

n

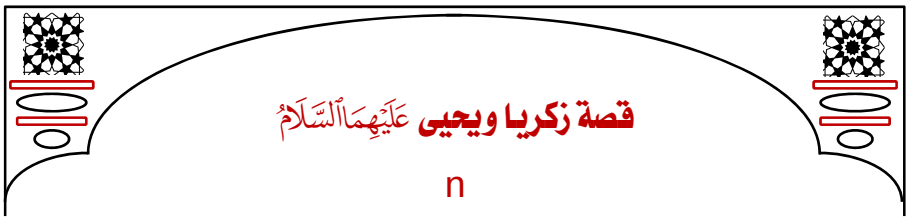

قصة زكريا ويحيى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ

n

كان النبي زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد كفل مريم ابنة عمران عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ عندما خرج عليه السهم، عندما اقترع هو والقائمون على بيت المقدس على من يكفل مريم، وعندما كفلها وكبرت مريم انقطعت لعبادة ربها في بيت المقدس، فكان زكريا: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران:٣٧]، فكان يقول لمريم: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران:٣٧]؟ أي من أين لك هذا الطعام؟ فكانت مريم تقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧].

ففي هذه الأثناء تمنَّى زكريا الولد، لأنَّه لم يكن له ولد؛ وذلك لأن زوجته كانت عقيمًا لا تلد، فقال زكريا: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم:٥]. فدعا زكريا ربه أن يرزقه الولد فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨]. وشكا إلى الله حاله بأنَّه قد كَبُرَ سنُّهُ وَوَهن عظمه وضَعُف، وخاف على دين الله ألَّا يقوم به من بعده، وأراد أنْ يكون هذا الولد يرث النبوَّة والرِّسالة من أبيه ومن آل يعقوب فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٤-٦].

فاستجاب الله دعاءه وأرسل ملائكته إلى زكريا وهو يصلِّي لتُبشِّرَهُ بأنَّ الله استجاب دعاءه وسيرزقه بالولد وسيجعله نبيًّا قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٩]، فقال زكريا: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران:٤٠]. أي كيف يكون لي الولد وقد كبرت وزوجتي عقيم؟! وهذه من الموانع في إنجاب الأولاد فقال الله تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:٩].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وقد خلقنا من العدم، فلا يُعجزه -سبحانه- أنْ يرزق من يشاء بالولد، فطلب زكريا من ربه آية وعلامة على ذلك فقال: ﴿رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً﴾ [مريم:١٠]. فأعطاه الله آية بأنَّه لا يكلِّم الناس ثلاث ليالي إلَّا بالإشارة، وهذا مع قدرته على الكلام، وهذه آية من رب العالمين فقال الله: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران:٤١].

ثم أمره الله بأن يكثر من الذكر والتسبيح فقال له: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران:٤١]. ففعل زكريا ما أمره ربه، وأمر الناس بذلك قال تعالى عمَّا فعل زكريا بعد ذلك: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١].

وبعد أنْ رَزَقَ الله زكريا بالولد وقد سمَّاه الله (يحيى)، وقال تعالى عنه: ﴿اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٧]. فلمَّا كَبُرَ يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ

أوحى الله إليه وجعله نبيًّا أمره الله تعالى أنْ يأخذ بالكتاب بالجد وأنْ يعمل بما فيه، وأنْ يدعو إليه فقال: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم:١٢].

ثم أخبرنا تعالى بأنَّ يحيى كان تقيًّا، وكان بارًّا بوالديه فقال الله عنه: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم:١٣-١٥].

العِبْرَة:

١ - فضيلة الدعاء، وأنَّه هو العبادة كما قال ﷺ: «**إن الدعاء هو العبادة**»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، [رواه أحمد].

ولذلك عندما أراد زكريا الولد توجَّه إلى الله تعالى بالدعاء فقال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨]. فاستجاب الله له ورزقه بيحيى، فإذا أهمَّك أمر أو أردت شيئًا فتوجَّه إلى الله بالدعاء؛ فإنَّ الله على كل شيءٍ قدير، وقد رزق زكريا الولد مع وجود الموانع من ذلك، فهو قد كبرت سنه ورقَّ عظمه، وزوجته عقيمًا لا تلد، وهذه آيةٌ من آيات الله تعالى.

٢- الصلاة من أسباب تفريج الهموم وتنفيس الكروب وتحقيق المطلوب، ولذلك أمر الله بالاستعانة بالصلاة فقال: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]، وجاء عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمره صلَّى» [رواه أبو داود].

ولذلك جاء إلى زكريَّا الفرج والبشارة بالولد وهو قائمٌ يصلِّي قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٩].

٣- حمل هم الدين والدَّعوة إلى الله فضيلة للإنسان، ولذلك كان هذا همُّ الأنبياء والمرسلين، فهذا زكريا كان يحمل همَّ دين الله تعالى وتطبيقه في الأرض، فلمَّا أصابه ذلك الهمّ دعا الله بالولد، ولم يكن يريد الولد لمصلحته هو، بل كان يريده لكي يكون نبيًّا يحمل همَّ دين الله تعالى ويطبِّقُهُ في الأرض، فلذلك قال في دعائه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٤-٦].

٤- أهميَّة الإكثار من ذكر الله تعالى وتسبيحه وتعظيمه، ومن فضائل الذكر أنَّ الله يجازي عليه بمثله قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، ومن أهميَّة التسبيح أنَّ جميع المخلوقات حتى البهائم والجمادات تسبِّح بحمد الله ونحن لا نفقه تسبيحها، فهذا يدل على أهميَّة الإكثار من التسبيح قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤].

ومما يدل على أهمية هذا الأمر، أنَّ الله تعالى عندما أعطى زكريا آية بأنَّه لا يكلم الناس ثلاثة أيام إلَّا بالإشارة، وأمره بأن يكثر من الذكر والتسبيح

فقال الله له: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران:٤١].

٥- أهميَّة بر الوالـدين، ولذلك فقد قرن الله طاعـته التي هي أوجب الواجبـات بطاعـة الوالـدين فقـال تعـالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣].

وذكر الله عن يحيى برِّه بوالديه مع أنَّه نبي، والأنبياء هم أفضل البشر فلا شك أنهم قد جمعوا كريم الخصال وحميد الفعال، ومع ذلك ذكر الله عنه برَّه بوالديه تأكيدًا على حقِّ الوالدين في الطاعة والبر والإحسان، فقال الله عن يحيى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم:١٤].

n

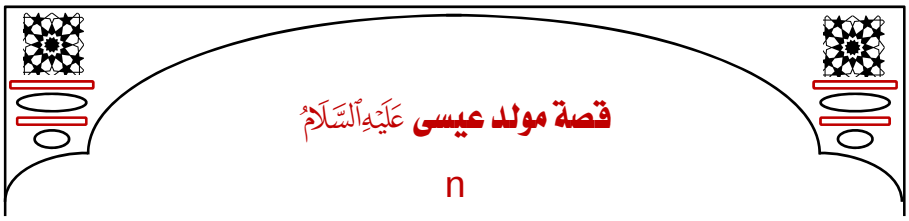

قصة مولد عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

n

كانت مريم ابنة عمران عابدة متبتِّلةً، وقد ابتعدت عن الناس لتتفرَّغ لعبادة ربها، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم:١٦-١٧]، وبعد ذلك أرسل الله لها رسولًا من الملائكة على هيئة بشر، فلمَّا رأته مريم خافت، واستعاذت بالله منه، وذكَّرته بتقوى الله إن كان يريد سوءًا، فطمئنها المَلَك وأخبرها أنه رسول من الله ليَهَب لها غلامًا، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم:١٧-١٩]، فتعجَّبت مريم من ذلك وقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٠]. فقال لها المَلَك: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٢١].

فحملت مريم وذهبت لمكان بعيد، ولمَّا جاءها المخاض وهو وقت الولادة، فأحسَّت بكربٍ شديد، فهي تعاني آلام الولادة وتخاف مِمَّا يقوله الناس فيها، فتمنَّت الموت، قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:٢٢-٢٣]، فيسَّر الله لها ولادة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقد أنطقه

الله في المهد، فنادى أمه وقال لها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم:٢٤-٢٦].

أي لا تحزني لأي أمر وهزي جذع النخلة -وكانت بجوارها- فكلي واشربي من النهر -وكان بجوارها- وإذا قابلتي أي بشر فلا تتكلمي، فأتت قومها ومعها ابنها عيسى، فتعجَّبوا من ذلك فقالوا: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٧-٢٨]. فتعاظموا هذا الأمر، فأشارت إلى ابنها فتعجبوا مرّةً أخرى وقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩]. فتكلَّم عيسى بأمر الله فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٣٠-٣٣].

العِبْرة:

١- أنَّ الله على كل شيء قدير، فقد خلق عيسى من غير أب، ولذلك قال تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٥]، فكان مولد عيسى معجزة، فاختلف الناس فيه: فمنهم من قال أنه الله، ومنهم من قال أنه ابن الله، وكل ذلك غير صحيح، بل هو عبد الله ورسوله، ولذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ

وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٤-٣٥]، وقال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:٧٥].

٢- إذا أراد الإنسان أمرًا فيجب عليه أن يبذل أسبابه مهما كانت رؤيته لها مستحيلة، ولذلك قال عيسى لأمه: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:٢٥]. مع العلم أن مريم في حال النِّفاس، وهي حال تكون فيها المرأة في شدَّة الضَّعف، وساق النخلة قوي لا يُمكن للإنسان في صحته أن يهزّه، ومع أنَّ الله قادر أن ينزِّل عليها الرَّطب من غير مشقَّة ولا هزٍّ للنخلة، ومع ذلك قال لها ابنها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم:٢٥]، في إشارة مهمَّة لبذل الأسباب.

٣- الحقُّ بيِّن وواضح، والباطل بيِّنٌ وواضح، وكثرة الجدال لا تأتي بفائدة، ولذلك قال عيسى لأمه إذا أتت إلى الناس ورأوه معها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:٢٦]. لأنها مهما أخبرتهم بالحقيقة فلن يُصدِّقوها، فكان الحل ألّا تكلِّمهم وينطق هو بالحقيقة.

وهذا فيه فائدة بأن الجدال والنقاش لا فائدة فيه، وينتهي دائمًا بالشحناء والبغضاء بين المُتجادلين، ولذلك وعد رسول الله ﷺ من يترك الجدال حتى وإن كان على حق ببيت في أسفل الجنة، فقال: «**أَنا زَعِيمٌ ببَيتٍ في رَبَضِ الجَنَّةِ**

لَمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا» [رواه أبو داود]، والمِراء هو الجِدال.

٤- الأهل إذا كانوا صالحين، فإن الظَّن بأبنائهم أنهم سيكونون صالحين، ولذلك لمَّا ظنَّ بنو إسرائيل في مريم ظنَّ السُّوء، فنادوها بأخيها وذكَّروها بأمها وأبيها، فقالوا: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم:٢٨]. فأنطق الله ابنها ليشهد على براءتها وطهارتها، وليكون معجزة من رب العالمين أَنْ خلقه من غير أب.

٥- أنَّ لمريم ابنة عمران عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ منزلة عالية عند الله لصدقها وإخلاصها في عبادة ربِّها قال تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢]، ولذلك قال ﷺ: **«كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وإنَّ فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»** [رواه البخاري].

n

قصة دعوة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه

n

أرسل الله تعالى عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى بني إسرائيل، وعلمه الكتاب من التوراة الذي أُنزل على موسى، والإنجيل وقد أُنزل عليه قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٤٦]، وأيَّده بالمعجزات، فكان يصوِّر من الطين على هيئة الطَّير ثم ينفخ فيه فيصبح طائرًا له روح بإذن الله، ويشفي الأكمه وهو الذي وُلد أعمى بإذن الله، وكذلك الأبرص، ويُحيي الموتى بإذن الله، ويخبرهم بالأمور الغيبيَّة، فهذه المعجزات التي أيَّد الله بها عيسى، فدعا عيسى قومه إلى إخلاص العبادة لله، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران:٤٨-٥١].

وبعد أن دعاهم عيسى إلى إخلاص العبادة لله، كفروا به ولم يؤمنوا ولم يُصدِّقوه، فحينها قال عيسى: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٥٢]. أي من يناصرني ويكون معي لنصرة دين الله، فألهم الله الحواريين أن يؤمنوا بالله وأن يكونوا أنصارًا لدين الله ولرسوله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١١]، فقال الحواريُّون -وهم أصحاب عيسى وأنصاره-: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢]. أي سوف نكون معك لنصرة دين الله، وقد أثنى الله على الحواريين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف:١٤].

وحينها انقسم بنو إسرائيل إلى فئتين، وهم من آمن بعيسى ومن كفر به، فاقتتل الفريقان فأيَّد الله المؤمنين ونصرهم، قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف:١٤].

العِبْرة:

١- أنَّ الله يؤيِّد رسله بالمعجزات التي بمثلها يؤمن الناس، وهذه المعجزات لا تكون إلَّا للأنبياء والرُّسل، فإحياء الموتى وشفاء الأمراض المستعصية والإخبار بما في الغيب، أمور لا يقدر عليها إلا الله، ويؤيِّد بها رسله؛ لتكون علامة على أنهم رسلٌ من عند الله حقًّا فقال عيسى لقومه: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ

فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران:٤٨-٥١].

٢- أن الله تعالى ينصر رسله وأولياءه المؤمنين، فقد نصر الله عيسى والحواريين؛ لأنهم نصروا دين الله، وكذلك ينصر الله المؤمنين في كل حين، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

n

قصة طلب الحواريين المائدة

n

بعد أن آمن الحواريون وقد كانوا في ضيق من العيش، فطلبوا من عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يدعو الله أن يُنزِّل عليهم مائدة من عند الله، فوعظهم عيسى وذكَّرهم بالله ونهاهم عن طلب المعجزات وقد أرسل الله رسوله بالمعجزات، فأخبروه أنهم يريدون الأكل منها للضيق الذي هم فيه، ويريدون منها زيادة إيمانهم ويقينهم بالله، ويعلمون أن عيسى قد صَدَقَهم بأنه رسول من عند الله، ويشهدون على نزولها لمن بعدهم فتكون آية، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:١١٢-١١٣].

وحينها دعا عيسى ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة:١١٤].

فاستجاب الله دعاء عيسى فقال: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:١١٥].

العِبْرة:

- من الحِكَم في تأييد الرُّسل بالمعجزات أنها تكون زيادة إيمان ويقين

للمؤمنين، ولذلك طلب الحواريون معجزة من عند الله لكي يزداد إيمانهم ويقينهم.

فلذلك من نظر إلى خلق الله وتفكر فيه ورأى بديع صنعه في هذا الكون في خلق السموات والأرض والدواب والأنعام وكذلك في خلق الإنسان، كلها آيات ودلائل على قدرة الله وعظمته، فإذا تفكَّر فيها الإنسان زاد إيمانه ويقينه بالله، والتفكُّر في خلق الله عبادة من العبادات يزداد بها الإيمان عند الإنسان، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١].

n

قصة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما رفعه الله إليه

n

بعد أن اتخذ عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ الحواريين أنصارًا له وللدعوة إلى الله، عزم بنو إسرائيل على قتل عيسى خشية أن يؤمن به الناس فقال الله له: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران:٥٥].

وقد جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لَمَّا أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج عيسى على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين، يعني: فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثني عشر مرة، ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي، فقام شاب من أحدثهم سنًا، فقال: أنا، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا، فقال: أنت هو ذاك، فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه، ثم صلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة، بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه الله

إليه. وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا ﷺ» [رواه النسائي].

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء:١٥٧]، فكفَّ الله أيدي بني إسرائيل عن عيسى، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١١٠].

ورفع الله عيسى إليه وفي آخر الزمان يكون نزول عيسى ابن مريم علامة من علامات قيام الساعة، قال تعالى في ذكر عيسى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف:٦١].

العِبْرة:

١- لا يكون في الأرض إلا مشيئة الله وإرادته وتدبيره، فقد عزم بنو إسرائيل على قتل عيسى ابن مريم، وعندهم القدرة على ذلك، ولكن الله لم يشأ، فأخذوا رجلًا شبيهًا له وظنُّوه هُوَ، فقتلوه وصلبوه ولم يقتلوا عيسى

ابن مريم، وحفظه ورفعه إليه قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء:١٥٧].

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وصيَّته لابن عباس: «**واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلَّا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلَّا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**» [رواه الترمذي].

٢- أن يوم القيامة حق، ويبعث الله فيه جميع الخلق ويحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم، ونزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان يكون علامة من علامات قُرب قيام السَّاعة، ولذلك قال تعالى عندما ذكر نزول عيسى ابن مريم أنه علامة على قيام الساعة: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف:٦١]. أي لا تِشُكُّوا في قيام الساعة لأنها حق.

n

قصة الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه

n

مرَّ رجلٌ معه حمار منْ عند قريةٍ قد خَرِبَت، فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ يجعل قصَّة هذا الرَّجل آية على قدرته على البعث والنشور، فلمَّا رأى الرَّجل هذه القرية وقد خربت وذهب عنها أهلها قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]؟ أي كيف يُحيي الله هذه القرية بعدما تهدَّمت وخربت وراح عنها أهلها؟! فجعله الله آية فأماته هو وحماره مئة عام ثم أحياه بعد ذلك قال تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة:٢٥٩].

فظنَّ أنَّه لبث في موته يومًا أو بعض يوم؛ لأنه لم يشعر بهذه المدَّة، وليرى هذا الرَّجل قدرة الله، فقد حفظ طعامه فلم يفسد، بينما رأى حماره قد تحلَّل وذهب جلده ولحمه وأصبحت عظامه متفرِّقه، ثم أراه الله كيف تعود العظام مع بعضها وتتشابك ثم يكسوها الله باللحم، فعندما رأى هذه الآية العظيمة قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩].

العِبْرة:

١ - أنَّ يوم القيامة حق، وأنَّ الله سيبعث جميع الخلق يوم القيامة للجزاء

والحساب، وقد أنْكر البعث المشركون، وردَّ الله عليهم بالأدلَّة العقلية والأدلة الشرعية، والذي حصل لهذا الرجل هو دليل عقلي على قدرة الله تعالى على البعث والنشور، والمراد هو أنَّه كما بعث الله هذا الرَّجل وحماره بعد الموت، فهو قادرٌ -سبحانه- على بعث جميع الخلق يوم القيامة.

ومن الأدلة العقلية على قدرة الله على بعث الخلق بعد الموت، هو قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:٢٩]، أي أنَّ الله تعالى بدأ خَلْقَنَا وأوجدنا من العدم، فهو قادرٌ على إعادتنا وبعثنا بعد الموت، وذلك لأنَّ الإيجاد من العدم أصعب من البعث بعد الموت، ومع ذلك فقد أوجد الله الخلق من العدم، وهو قادرٌ على إعادة جميع الخلق بعد الموت، ولا يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن الأدلَّة الشرعية على البعث بعد الموت هو قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

٢- أنَّ الله على كل شيءٍ قدير، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فعندما أمات الله هذا الرجل مئة عام، حفظ الله طعامه وشرابه من أنْ يفسد، مع أنَّ الطعام والشراب سريع الفساد، فحفظه الله مئة عام لم يتغيَّر ولازال صالحًا للأكل والشرب، وأمَّا الحمار فجرت عليه سنَّة الله فتحلَّل وذهب جلده ولحمه وتفرَّقت عظامه، وذلك لأنَّ الله أراد هذا لتكون آية للرَّجل وللناس على قدرته على البعث بعد الموت، وأنَّه على كل شيء قدير، وأنَّه لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

n

قصة أصحاب السبت

n

كان هناك قرية كانت على شاطئ البحر، وكان أهلها يعيشون على صيد الأسماك، فأراد الله تعالى أن يبتليهم بسبب فسقهم قال تعالى عنهم: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣]، فحرَّم عليهم الصيد يوم السبت، فكانت الأسماك تأتي يوم السبت إلى الشاطئ، وبقية الأيام لا تأتيهم قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف:١٦٣].

فانقسم أهل هذه القرية على ثلاثة أقسام:

* فأما القسم الأول منهم فتحايلوا على أمر الله تعالى، فإذا كان يوم الجمعة حفروا حفرًا ووضعوا فيها الشِّبَاك، فإذا جاءت الأسماك يوم السبت وقعت في تلك الشِّبَاك، ثم يأخذونها يوم الأحد.

* وأما القسم الثاني فإنهم وعظوهم ونهوهم عن فعلهم.

* وأما القسم الثالث فسكتوا عن وعظهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف:١٦٤]، ومع هذا فالقسم الثالث لم يخالفوا أمر الله ولم ينهوا المعتدين.

فلما جاء العذاب من الله تعالى عليهم، أنجى الله الذين كانوا ينهون عن السوء، ومسخ الذين اعتدوا في السبت إلى قردة خاسئين، وأما الذين سكتوا فسكت الله عنهم، وتوعَّد الله المعتدين في السبت أن يبعث عليهم من يهينهم ويسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٦٥-١٦٧].

العِبْرة:

١- لا يجوز التحايل على أوامر الله تعالى، فهؤلاء أصحاب السبت تحايلوا على أمر الله فعاقبهم الله على ذلك، ثم توعَّدهم بأن يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٦٦-١٦٧].

٢- فضيلة الأمر بالعروف والنهي عن المنكر، وقد أمر الله به وذكر أنَّه من أسباب الفلاح فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، ولذلك عندما جاء العذاب على أصحاب السبت أنجى الله تعالى الذين ينهون عن السوء

من أهل القرية وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٥].

٣- مخالفة أوامر الله تعالى توجب الذلَّة والمهانة، فهؤلاء أصحاب السبت توعَّدهم الله تعالى أن يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٦٧].

ولذلك فإنَّه من يحادّ الله ورسوله توعَّده الله بأن يكون في الأذلين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة:٢٠]. ومن يذلِّهُ الله فما له من مُكرِم قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج:١٨].

n

قصة أصحاب الكهف

n

من الآيات العجيبة التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز قصة أصحاب الكهف قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف:٩]، وأصحاب الكهف هم فتيةٌ شباب فرُّوا بدينهم من قومهم؛ لأنَّ قومهم كانوا يعبدون الأصنام ويسجدون لها من دون الله، وكانوا يُجبِرون الناس على السجود للأصنام وعبادتها من دون الله قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف:٢٠].

وهؤلاء الشباب هداهم الله للتوحيد وإفراد العبادة لله، فربط الله على قلوبهم وثبَّتهم على الحق وزادهم هدى قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف:١٣]، فعندما هداهم الله للتوحيد ثبتوا عليه وأخلصوا العبادة لله فقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف:١٤].

وأنكروا من قومهم عبادة الأصنام فقالوا: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف:١٥]. فدعوا الله ولجأوا إليه أن يرحمهم ويرشدهم فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف:١٠].

فآواهم الله إلى كهف وهو غار في الجبل قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف:١٠]، ففقدهم أهل المدينة وبدأوا يخبرون الناس عن قصة هؤلاء الشباب واختفائهم، فانتشرت قصتهم بين الناس.

وقد استجاب الله دعاءهم عندما صدقوا مع الله، واعتزلوا قومهم وفرُّوا بدينهم إلى هذا الكهف، فرحمهم الله وأرشدهم قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف:١٦]، فمن رحمة الله بهم أنَّه ضَرَب على آذانهم فناموا نومًا طويلًا؛ لأنَّهم لن يستطيعوا مواجهة قومهم فعددهم قليل، ولو وجدوهم لأجبروهم على عبادة الأصنام، فإن لم يفعلوا فإنَّهم سيقتلونهم.

فناموا لمدة ثلاثمئة وتسع سنين قال تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ [الكهف:٢٥]، وفي هذه المُدَّة تولَّى الله حفظهم من كل شيء، فكان الذي يراهم وهم نائمين يحسبهم أيقاظًا؛ لأنَّ أعينهم كانت مُفتَّحة في أثناء نومهم قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف:١٨]، وكان معهم كلبٌ يحرس الغار فأصابه من النوم ما أصابهم، وكان الكلب خارج الغار يحرسهم وكان باسطٌ ذراعيه وكأنه مستيقظ يحرسهم مع أنه نائم، فحفظهم الله بإدخال الرُّعب في قلب من يقترب منهم وهم بهذه الحالة قال تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف:١٨].

وحفظ الله أجسادهم من الأرض أنْ تأكلها، فجعلهم يتقلَّبون ذات اليمين وذات الشِّمال؛ لئلَّا تستقر أجسادهم على هيئة واحدة فتبدأ بالتحلُّل والتآكل، فقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٨]، ومن حفظ الله لهم أنْ جعل الغار الذي هم فيه لا تأتيه الشمس فيتأذّوا من النور ومن الحر قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف:١٧].

وبعد هذه المدَّة أيقظهم الله، فأخذوا يسألون بعضهم بعضًا فيما بينهم كم كانت مدَّة نومهم؟ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف:١٩]؟ فلم يعرفوا حقيقة المدَّة التي قضوها في نومهم -وقد كانوا على نفس أشكالهم وهيئاتهم فلم يتغيَّروا مع طول المُدَّة التي قضوها نائمين- فلذلك ظنُّوا أنهم قضوا يومًا في نومهم فقالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:١٩]. فاختلفوا في مقدار المدَّة التي قضوها في نومهم فقال بعضهم: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف:١٩].

ثم أرسلوا أحدهم بأنْ يذهب للمدينة؛ ليأتي لهم بالطعام وأوصوه بأن يتخيَّر لهم من الطَّعام أزكاه وأفضله، وأوصوه بأن يتلطَّف في طلبه للطعام وأنْ يتخفَّى؛ لئلَّا يتعرَّف عليه قومهم؛ لأنهم سوف يجبرونهم على الشرك بالله أو يقتلونهم، فقالوا لبعضهم: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ

فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف:١٩-٢٠]، فذهب رسول هؤلاء الشباب لإحضار الطَّعام، فلمَّا أراد أنْ يشتري الطعام أخرج النُّقود التي معه، فلمَّا رآها البائع وجدها قديمةً جدًّا، وكان الناس يعرفون خبر هؤلاء الشباب الذين فرُّوا بدينهم ولم يعودوا، فعندما رأوا النقود التي كانت معهم علموا أنَّها تعود لعهد ملك كان يحكم قبل ثلاثمئة سنة، فحينها عرفوا أنَّهم هم الشباب الذين فرُّوا بدينهم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ [الكهف:٢١].

ولمَّا عرفهم الناس عظَموهم وأجلُّوهم واحترموهم، والله أعلم أنَّهم ماتوا قريبًا من عثور الناس عليهم، فبعد موتهم اختلف الناس في أمرهم، فقرَّر أهل الحل والعقد عندهم بأنْ يتَّخذوا عليهم مسجدًا تعظيمًا لهم -وهذا من جهلهم بدين الله، ولو علموا الحق لأفردوا العبادة لله الذي بقدرته جعل هؤلاء الفتية ينامون هذه المُدَّة، ثم أيقظهم بعد ذلك ولكنَّ جهلهم قادهم لهذا القرار- قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف:٢١].

وقد اُختُلِفَ في عدَّتهم فقال بعضهم: ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢]. وقال بعضهم: ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف:٢٢]. وكل هذا بدون علم لقوله تعالى: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ﴾ [الكهف:٢٢]، وقال بعضهم أنَّ عدَّتهم: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢]. وهذا والله أعلم هو الأقرب كما قال

المفسِّرون، لأنَّ الله ذكر هذا العدد بعد ذكر الأقوال الأخرى التي قال عنها تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف:٢٢]، ولكن يبقى عددهم الحقيقي لا علمه إلَّا الله لأنَّ الله تعالى قال: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف:٢٢].

ثم أخبرنا تعالى أنَّ المهم ليس عددهم، بل المهم قصَّتهم التي جعل الله فيها الكثير من العِبَر، ونهانا عن كثرة المُجادلة في عددهم قال تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٢].

العِبْرة:

١ - الأمور الخارقة للعادة على ثلاثة أنواع:

إما أنْ تكون مُعجزة يؤيِّد الله بها رسله وأنبياءه، لقوله ﷺ: **«ما من الأنبياء من نبيٍّ إلَّا قد أُعْطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنَّما كان الذي أُوتِيت وحيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ، فأَرْجُو أَنْ أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»** [رواه البخاري]، وهذه المعجزات حقيقية من الله تعالى ولا تكون إلَّا للأنبياء والرُّسل: كعصى موسى التي انقلبت حيَّة حقيقية، وناقة صالح، والنار التي لم تحرق إبراهيم -عليهم جميعا السلام-. ومنها المعجزات التي كانت لنبينا محمد ﷺ كنبع الماء من بين أصابعه، وانشقاق القمر والمعجزة العُظمى وهي القرآن الكريم.

وأمَّا النوع الثاني من الأمور الخارق للعادة فهي كرامات الأولياء، وهذه يُعطيه الله لأوليائه الصالحين، وأولياء الله الصالحون صفتهم كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣]، فالأولياء صفتهم كما جاء في هذه الآية الكريمة أنَّهم جمعوا بين الإيمان بالله والتقوى، فأمَّا الإيمان فمن لوازمه العمل الصالح، وأمَّا التقوى فهو الخوف من الله الذي يدفعهم إلى البعد عن معصية الله تعالى، وليس شرطًا أنْ يكون هؤلاء الأولياء معروفين بين الناس، وليس شرطًا أنْ تكون كرامتهم معروفة معلومة عند الناس، وهذه المرتبة هي مرتبة عالية يصل إليها العبد بإخلاصه العبادة لله، ومن أمثلة كرامات الأولياء ما حدث لأصحاب الكهف وحفظ الله لهم، فقصتهم مثال لما يُكرم الله به أولياءه الصالحين.

وأمَّا النوع الثالث من الأمور الخارقة للعادة هي السحر، ولا يُمكن التوصُّل إليه إلَّا عن طريق الكفر بالله تعالى والتقرُّب من الشياطين، والسحر ليس له حقيقة، وإنَّما هو مُجرَّد تخييل، ودلَّ على ذلك أنَّه عندما اجتمع سحرة فرعون للقاء موسى وألقوا حبالهم وعصيَّهم، فتخيَّل الناس أنَّها تسعى، ولذلك قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦]، فلذلك لا يجوز التعامل بالسحر ولا الذهاب للسَّحَرَة ولا يجوز تصديقهم فيما يقولون؛ لقوله ﷺ: **«من أتى عرَّافًا فسأله عن شيء فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يوما»** [رواه مسلم]، وقال ﷺ: **«من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»** [رواه أبو داود]، وذلك أنَّ الساحر كفر بالله وادّعى مشاركة الله فيما اختص الله بعلمه وهو علم الغيب والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩].

٢- أنَّ الإنسان إذا صدق مع الله فإنَّ الله يحفظه ويهديه ويثبِّته، ولذلك عندما صدَق أصحاب الكهف مع الله في إيمانهم بالله وإخلاص العبادة له، فرُّوا بدينهم إلى الكهف، فحفظهم الله من كلِّ شيء، وهداهم وثبَّتهم على الإيمان، فلذلك إذا صدَق الإنسان مع الله وآمن به وعمل صالحًا واتقى الله حقَّ التقوى، فإنَّ الله يتولَّى حفظه، فقد جاء أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»

[رواه البخاري].

٣- إذا كان المسلم في بلدٍ يُضطهد فيه بسبب إيمانه بالله، فيُشرع له الهجرة والذهاب عن ذلك البلد؛ ليتمكن من عبادة الله، كما فعل أصحاب الكهف، فقد فرُّوا بدينهم عندما رأوا قومهم يُجبرون الناس على السجود للأصنام، ولذلك أمر الله الإنسان بالهجرة عن البلد الذي يُضطهد فيه بسبب إيمانه، إلَّا إذا كان ضعيفًا لا يستطيع الهجرة أو لا يملك المال، فإن الله تجاوز عنه؛ لأنَّ الله لا يُكلِّفُ نفسًا إلَّا وسعها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:٩٧-٩٩].

٤- يُشرع محبة الأولياء والصالحين في الله، ويجب احترامهم لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦]، ولكن لا يجوز أن نرفعهم فوق قدرهم، ولا يجوز أن يُصرف لهم شيئًا من العبادة، ولا يجوز دعائهم من غير الله، ولا يجوز اتِّخاذهم شفعاء عند الله، ولا يجوز التوسُّل إلى الله بجاههم ومقامهم، لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

ولا يجوز بناء المساجد والمشاهد على قبورهم، لقوله ﷺ: «**ألا وإن من كان قبلكم، كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**» [رواه مسلم]، فمن فعل شيئًا من ذلك فإنَّه يكون قد وقع في الغلو في الدين، وقد حذَّر رسول الله ﷺ من الغلو في الدين فقال: «**إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**» [رواه النسائي]، وأخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّه قد هلك من فعل ذلك فقال: «**هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون**» [رواه مسلم].

وهذا هو المحظور الذي وقع فيه قوم الفتية من أصحاب الكهف، فقد بنوا مسجدًا على قبور هؤلاء الشباب الصالحين قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف:٢١].

n

قصة صاحب الجنتين

n

ضرب الله تعالى مثلًا في القرآن لرجلين: أحدهما شاكر لنعمة الله، والآخر كافر بها، وقد أعطى الله أحد هذين الرجلين جنتين فيها العنب، ويحدُّ هاتين الجنتين النخل، فهو يَحُفُّهَا من جميع جوانبها، وجعل بين الأشجار الزرع، وأعطاه الله نهرًا بين هاتين الجنتين ليسقي منه زروعه وأشجاره، ومن فضل الله أنَّ هاتين الجنتين تؤتي ثمارها في حينها، وهذا غاية الفضل والإنعام من الله لهذا الرجل قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ [الكهف:٣٢-٣٣].

فدار حوارٌ بين صاحب الجنتين وصاحبٌ له مؤمن، فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ [الكهف:٣٤]. فيفتخر على صاحبه بما أنعم الله عليه من نعم، ولم يشكر نعمة الله، ثم ازداد في ظلمه لنفسه وطغيانه ثم اعتقد أنَّ الجنتين التي أعطاه الله لن تبيد وتفنى، ثم ازداد في كفره فأنكر البعث والنشور، وزعم أنَّه لو رجع إلى ربه فإنَّه سيعطيه خيرًا من جنتيه.

فجمع بهذه الحالة بين جحود نعمة الله وإنكار البعث والنشور والتَّأَلِّي على الله بأنَّ الله سيعطيه خيرًا من جنتيه قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ

لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٥-٣٦]، فأنكر عليه صاحبه المؤمن هذا الكفر بالله والجحود لنعمته، وذكَّره بأصل خلقته وضعفه، ثم عندما أعطاه الله النِّعم كفر بها وجحد نعمة الله، ثم أقرَّ بتوحيده لله ونبذ الشرك وكل معبود سوى الله فقال له: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٣٧-٣٨].

ثمَّ بيَّن لصاحبه ماهو الواجب عليه لشكر نعمة الله؛ لأنَّ هذه النعمة من الله فقال له: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩]. ثم ذكر له حالته بأنَّه أقلَّ منه مالًا وولدًا، ومع ذلك فهو شاكرٌ لنعمة ربِّه، وأنَّ الله هو الذي أعطاه هذه النِّعم، وهو قادرٌ على أنْ يسلبها منه فقال له: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ [الكهف:٣٩-٤١].

وبعد ذلك جاء العذاب من الله لصاحب الجنتين الذي كفر به وجحد نعمته، فأهلك الله هاتين الجنتين التي أعطاه، فندم على ما كان منه من الكفر بالله وجحود نعمته قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف:٤٢-٤٤].

العِبْرة:

١ - من فوائد ضرب الأمثال في القرآن تقريب المعنى للأذهان، فيحصل بذلك الفهم للمعاني التي يريدها الله عَزَّوَجَلَّ، فتحصل بذلك التَّذكرة للناس، فتكون الموعظة أبلغ في النَّفع قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥]، ومن الأمثال التي ضربها الله لنا في القرآن الكريم هي قصة صاحب الجنتين قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف:٣٢]، وذلك حتى يفهم الناس ما فيها من المعاني والمواعظ والعِبَر.

٢- يجب على الإنسان أن يعلم أنَّ كل ما يتمتَّع به من نِعَم فهي من الله قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، فإذا علم ذلك فإنَّه حريٌّ به أنْ يشكر نعمة الله، لأنَّ الله قادرٌ على أنْ يسلبها منه كما أعطاه، ولذلك فقد سَلَبَ الله النِّعمة من صاحب الجنتين عندما كفر النِّعمة قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف:٤٢-٤٤].

٣- لا يجوز التَّأَلِّي على الله تعالى لقوله ﷺ: «**قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله: من ذا الذي يتألى عليَّ ألَّا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطت عملك**» [رواه مسلم]، ولذلك عندما تَأَلَّى صاحب الجنتين على الله فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦]،

فعاقبة الله بأنْ أهلك الجنتين التي أعطاه قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٢].

٤- وجوب شُكر نِعَم الله، فالله يزيد الشاكر من النِّعم قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]، ولذلك فقد سَلَبَ الله النِّعمة من صاحب الجنتين عندما كفر بها.

٥- وجوب التَّذكير لمن حادَ عن الطريق، لعلَّ الله ينفعه بها ويعود إلى رُشده قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥]، ولذلك فإنَّ الرجل المؤمن ذكَّر صاحبه صاحب الجنتين بوجوب شكر النِّعمة، ولكن صاحب الجنتين تمادى في كفره بالله فأخذ الله منه ما أعطاه من النِّعم.

٦- النَّدم لا يعيد الفائت، ولذلك ندم صاحب الجنتين على ما كان منه من الكفر بنعمة الله، ولكنَّ ذلك لا ينفع ولا يعيد له الجنتين قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف:٤٢-٤٤].

ولذلك يجب على الإنسان ابتداءً أنْ يشكر نعمة الله، لأنَّ النِّعمة إذا زالت بسبب كفرها وجحودها فإنَّ النَّدم لا يعيدها.

n

قصة ذي القرنين

n

ذو القرنين هو رجل صالح، أعطاه الله من أسباب الملك والقوة ما مكَّنه الله به من ملك الأرض، وسُمِّي بذي القرنين؛ لأنَّه بلغ المشرق والمغرب قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف:٨٣-٨٥]، فاستطاع ذو القرنين بما أعطاه الله من أسباب القوَّة -وهي القوة المادِّيَّة من الجيش والعتاد والسلاح- أنْ يبلغ مشارق الشمس ومغاربها، فانطلق ذو القرنين حتى وصل إلى مغرب الشمس فرآها كأنَّها تغرب في الماء -وهذا الذي يظهر للعيان- فذلك قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف:٨٦]، ووجد عند مغرب الشمس قومٌ مكَّنه الله منهم، فحكم فيهم بأنْ يقتل من كفر منهم بالله، ومن آمن منهم فسوف يخلِّي عن سبيله قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف:٨٦-٨٨].

ثم انطلق ذو القرنين بما أعطاه الله من أسباب حتى وصل إلى مشرق الشمس، ووجدها تطلع على قوم ليس لهم بيوت ولا لباس يقيهم من الشمس قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ

قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف:٨٩-٩٠]، ثم انطلق ذو القرنين حتى وصل إلى قوم بين جبلين، فاشتكى إليه هؤلاء القوم من ظلم يأجوج ومأجوج -وهما قبيلتان من البشر-، فاشتكى هؤلاء القوم من فساد يأجوج ومأجوج، فقد قتلوا منهم خلقا كثيرًا وسلبوا أموالهم وعاثوا في الأرض الفساد، ثم عرضوا على ذي القرنين مبلغًا من المال مقابل أنْ يبني بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًّا ليكفَّ شرُّهم عنهم فقالوا: ﴿يَذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف:٩٤]؟

ولكن ذو القرنين زَهِدَ في مالهم، واكتفى بما أنعم الله عليه من القوة والملك، وطلب منهم أنْ يُعينوه بأنفسهم فيعملون معه ومع جنده بأنفسهم، فبدأوا في بناء السَّد على قبيلتي يأجوج ومأجوج، فأمرهم ذو القرنين أنْ يُعطوه قطع الحديد فجعلها بين الجبلين ثم أمرهم أنْ يوقدوا نارًا عظيمة عند السَّد، ثم أمرهم أنْ ينفخوا على النَّار بالمنافيخ لكي يشتدَّ لهيبها على الحديد فينصهر الحديد على بعضه البعض فيلتحم، ثمَّ أمرهم أنْ يذوِّبوا النُّحاس، فعندما أذابوه أخذه فصبَّه على الحديد لكي يُصبح السَّد قطعةً واحدةً قويَّةً قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف:٩٥-٩٦]، وكان هذا السَّد عاليًا وقويًّا ومنيعًا فلم يستطع بعد ذلك أحد من قبيلتي يأجوج ومأجوج أنْ يصعد

على هذا السَّد فيتجاوزه لعلوِّه ولم يستطيعوا نقبه وخرقه لقوَّته قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف:٩٧]، فلمَّا انتهى ذو القرنين من بناء السَّد أثنى على الله فقال: ﴿قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف:٩٨].

العِبْرة:

١- القـوَّة المادِّيَّة من الجيش والعتـاد والسلاح من أسبـاب التمكين والظهور في الأرض، ولذلـك أمر الله بإعداد العدَّة، لأنَّه بها يستقيم الملك ويشتد ويقوى قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠]، ولذلك لما قضى الله بأنْ يُمكِّنَ ذي القرنين أعطاه أسباب هذا التَّمكين من القوَّة والجيش والعتاد، فاستعان ذو القرنين بما أعطاه الله، فكان له الملك قويًّا مُهابًا قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف:٨٤-٨٥].

٢- من شُكر الله على نِعَمِه أنْ يستخدمها الإنسان فيما يُرضي الله، وهذا ذو القرنين سخَّر قوَّته التي أعطاه الله في مرضاة الله، فبنى السَّد على قبيلتي يأجوج ومأجوج الذين عاثوا في الأرض الفساد، وأحسن إلى الناس.

٣- لا تستقيم حياة الناس وتصلح وفيها من يُفسد في الأرض، فلذلك اشتكى القوم الذين وصل إليهم ذو القرنين من فساد قبيلتي يأجوج ومأجوج، وأرادوا أنْ يبذلوا المال لذي القرنين ليبني عليهم سدًّا ليردَّهم عن فسادهم فقالوا: ﴿يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن

﴿تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف:٩٤]. ولذلك إذا أراد الناس أنْ تستقيم حياتهم فليقضوا على الفساد.

٤- إنَّ خروج يأجوج ومأجوج من علامات قرب قيام الساعة قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء:٩٦-٩٧]، وقدبيَّن رسول الله ﷺ كيف يفتح يأجوج ومأجوج هذا السَّد فقال: «**يحفرونه كل يوم، حتى إذا كادوا يخرقونه، قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غدا، فيعيده الله كأشد ما كان حتى إذا بلغ مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غدا إن شاء الله، واستثنى قال: فيرجعون فيجدونه كهيئته حين تركوه، فيخرقونه فيخرجون على الناس**» [رواه الترمذي].

n

قصة قارون

n

كان قارون من بني إسرائيل، فهو من قوم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص:٧٦]، وقد أعطاه الله أموالًا كثيرةً جدًّا حتى إنَّ العُصبَة من الرِّجال الأشدَّاء الأقوياء ليصْعُب عليهم حمل مفاتيح الخزائن التي فيها أموال قارون، فإذا كانت المفاتيح من كثرتها يَصْعُب حملها، فكيف بالأموال التي في داخل هذه الخزائن؟! قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦]، فوعظه المؤمنون من قومه ونهوه عن التكبُّر، وأمروه بأنْ يتصدَّق وينفق من ماله في وجوه الخير ما يبقى له أجره يوم القيامة، وحذَّروه من الإفساد في الأرض؛ لأنَّ الله لا يُحبُّ المُفسدين فقالوا له: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٦-٧٧]. فردَّ عليهم قارون بقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]. أي بمعرفتي في التجارة وبمعرفتي عن كيفية جمع المال، ولكنه بجهله نسي قدرة الله عليه، وأنَّ الله قد أهلك من هو أشدُّ منه قوةً وأكثر عددًا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨].

وخرج قارون على قومه في زينته ومعه ما أنعم الله به عليه من الأموال والمراكب والخدم، فتمنَّى الذين وقع في قلوبهم حبُّ الدنيا أنْ يكون لهم مثلما مع قارون فقالوا: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [القصص:٧٩]. فقال لهم الوعَّاظ من قومهم: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص:٨٠]. وذلك لأنَّ الدنيا زائلة وهي درا ممر وليست دار مقر، والآخرة هي الباقية، فالثواب في الآخرة خير من الدنيا وما فيها، ولا يحصل على هذا الثواب إلا من كان صابرًا.

وعندما تمرَّد قارون على أمر الله وتكبَّر على الله وتعالى على الناس وكفر بالله قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ٢٤ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [غافر:٢٣-٢٥]، فجعل الله جزاءه من جنس عمله، فخسف الله به وبداره وما فيه من متاع في الأرض التي يمشي الناس عليها قال تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

وعندما وقع عليه العذاب، عرف الذين كانوا يتمنون أنْ يكون لهم مثلما مع قارون حقيقة الدنيا، وأنَّ الله يوسِّع الرِّزق على من يشاء ويُضيِّقه على من يشاء بحكمته -سبحانه-، وأنَّ من كفر بالله فلن يُفلح ولو كان معه كنوز الدنيا، فلن تغني عنه من الله شيئًا فقالوا: ﴿وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ

لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [القصص:٨٢].

العِبْرة:

١- أنَّ التكبُّر على الناس والتعالي عليهم من البغي والعدوان عليهم، فإذا تكبَّر الإنسان على الناس بسبب نعمة أنعم الله بها عليه وحَرَمَ غيره منها، فهذا بغي عليهم وعدوان وإثارة لما في مكامن النفوس من الحسد والحقد، وقد يؤدِّي الحال ببعض الناس إلى التسخُّط على الحال الذي هم فيه وجحد نعمة الله التي عندهم وتمنِّي المزيد، وتصبح القلوب مفتوحةً على الدنيا وتنسى الآخرة، وقد يصل الحال ببعض الناس إلى السعي للحصول على المال بأيِّ طريقة، حتى ولو كان ذلك بالطُّرق غير المشروعة، ولذلك ذمَّ الله تعالى قارون لهذا السبب فقال: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ [القصص:٧٦]، وكان بغيه أنَّه تكبَّر عليهم عندما نصحوه فقال عن أمواله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]. وعلاوةً على ذلك فقد خرج يتبختر بأمواله وخدمه قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾ [القصص:٧٩].

فلذلك ينبغي على منْ أنعم الله عليه بنعمة أن يشكر الله عليها أولًا، وألَّا يتكبَّر على الناس ولا يتعالى عليهم ولا يُكثر من الاستعراض أمام الناس بما أعطاه الله، لاسيما إذا كان ذلك أمام أناس محرومين مما أعطاه الله.

٢- تحريم الكِبْر ولذلك قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر**» فقال رجل: إنَّ الرجل يحب أَنْ يكون ثوبه حسنًا، ونعله

حسنة؟ قال: «إِنَّ الله جميل يحب الجَمَالَ، الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقّ، وغَمْطُ النَّاس» [رواه مسلم]، و(بطر الحق) أي رد الحق، و(غمط الناس) أي احتقار الناس.

ولذلك خسف الله بقارون عندما تكبَّر على الناس، ثم قال الله تعالى بعد ذكر قصَّة قارون: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]، أي إنَّ من تكبَّر في الأرض وأفسد فليس له حظ ولا نصيب في الآخرة.

٣- إذا أنعم الله على الإنسان بمال أو منصب أو رزق، فليس هذا دليلًا على حُبِّ الله له، بل قد يكون ذلك استدراجًا له ولذلك قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٤-٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٤-٤٥].

٤- لا يبقى للإنسان من ماله إلَّا ما تصدَّق به وقدَّمه لله، وما يستخدمه الإنسان لنفسه من ماله، فإنَّه ينتهي لقوله ﷺ: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلَّا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضَيْتَ» [رواه مسلم]، وأيضا ما جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: «ما بقي منها؟» قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: «بقي كلُّها غير كتفها» [رواه الترمذي].

ولذلك وعظ الذين أوتوا العلم قارون فقالوا له: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [القصص:٧٧]. أي أنفق من مالك في وجوه الخير؛ فإن ذلك يبقى أجرٌ لك في الآخرة.

٥- جمع المال وطلب الرِّزق ليس محظورًا فيه بحدِّ ذاته، بل هو مأمور بالسَّعي في الأرض وطلب الرِّزق الحلال قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة:١٠]، والإنسان مأجور على ذلك لقوله ﷺ: «**إنك أَنْ تذر ورثتك أغنياء، خير من أَنْ تذرهم عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ الناس، وإنك لَنْ تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إِلَّا أُجِرْتَ بها، حتى ما تجعل في فِيِّ امرأتك**» [رواه البخاري].

ولذلك قال أهل العلم من قوم موسى لقارون: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [القصص:٧٧]. فالتمتُّع بما أباحه الله من مُتَع الدنيا من مطعمٍ ومشربٍ وملبسٍ ومركبٍ وغيرها لا محظور فيه.

وإنَّما المحظور هو كفر هذه النِّعم والتكبُّر والتعالي على الناس، وأن يكون هذا المال مُلهيًا لك عن عبادة الله وعن الصلاة، والمحظور أنَّ الإنسان لا يؤدِّي زكاة ماله وحقَّ الله فيه، فإنَّ ذلك كله مذموم وهو سببٌ لزوال النِّعم.

٦- عندما أرسل الله موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فقد أرسله إلى فرعون وقومه، وعندما لم يقبلوا دعوة موسى وكفروا وادَّعوا بأنَّ موسى ساحر، ذكر الله تكذيب رؤوس القوم لموسى وهم فرعون وهو ملكهم وهامان وهو وزير فرعون وقارون وهو صاحب الثروة والمال، لأنَّهم عندما كذَّبوا فتبعهم الناس

ولم يؤمنوا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [غافر:٢٣-٢٥]، وذلك لأنَّ رؤوس القوم وقادتهم يتبعهم الناس، فعندما كفر هؤلاء تبعهم قومهم، ولذلك قال فرعون لقومه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨]. فتبعه هامان وزيره في ضلاله، فتأثَّر بهم قارون صاحب الثَّروة فتبعهم الناس، فأضلهم فرعون كما قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه:٧٩]، وعندما أضلهم فرعون فإنَّ حالهم يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود:٩٦-٩٩].

n

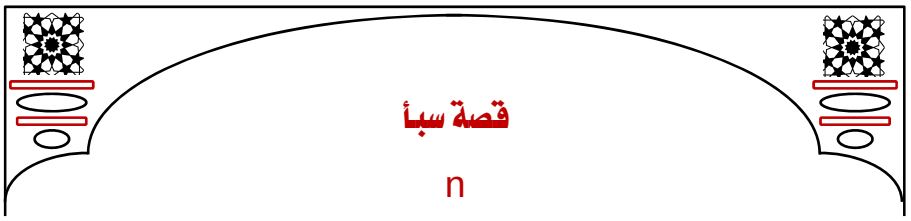

قصة سبأ

n

سبأ بلدةٌ تقع باليمن، وقد أنعم الله على أهلها بِنِعَمٍ كثيرة، فقد أعطاهم جنتين، فيها من الأشجار وطيب الثِّمار الشيء الكثير، وكان عنَّدهم وادٍ تأتيه السيول الكثيرة فبنوا فيه سدًّا مُحكمًا، فكانت تجتمع فيه المياه فيسقون منها بساتينهم، فعندهم الماء والطَّعام الكثير قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ:١٥].

وعلاوةً على ذلك فقد أنْعم الله عليهم بتأمين طُرُق أسفارهم، فكانوا إذا أرادوا السَّفر إلى الأرض المباركة وهي (الشام) للتجارة، فإنَّهم لا يجدون عناءً في أسفارهم، فالقرى متَّصلة ببعضها فلا يحتاجون إلى حمل الزاد، والطريق آمن من قُطَّاع الطُّرُق في الليل والنهار على حدٍّ سواء، ويعرفون الوقت المحدَّد لقطع المسافة بين هذه القرى إلى الشَّام، وكذلك الطَّريق واضحةٌ معلومة لا يتيه فيها أحد، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ:١٨]، ولكنَّهم ملُّوا نِعَم الله، فأرادوا المشقَّة في السَّفر وحمل الزاد وأخذ الرَّاحلة، فدعوا على أنفسهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [سبأ:١٨-١٩].

فعندما جحدوا نِعمة الله وكفروا بها وظلموا أنفسهم، أرسل الله عليهم

سيلًا عظيمًا وهو (سيل العَرِم) فَهَدَمَ سدَّهم وأتْلَف بساتينهم وجنَّتَيْهِم، وصار في هذه الجَنَّتَيْن شجر لا فائدة منه وشجر فيه ثمرٌ قليل لا يكفيهم قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ:١٦-١٧]، واستجاب الله دعاءهم على أنفسهم، ففرَّقهم في الأرض فمنهم من سكن الشام ومنهم من سكن اليمن.

فعن ابن عباس قال: إنَّ رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو أَرَجُلٌ أم امرأة أم أرض؟ فقال: «**بل هو رجل ولد عشرة، فسكن اليمن منهم ستة من أولاده العشرة، وبالشام منهم أربعة: فأما اليمانيون: فمذحج، وكندة، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحمير، عربًا كلها، وأما الشامية: فلخم، وجذام، وعاملة، وغسان**» [رواه أحمد].

وصاروا أحاديث للناس يروون قصّتهم ويعتبرون بها، بل صاروا مثلًا يُضرب فيقال: «تفرقوا أيدي سبأ» قال تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:١٩]، وقال تعالى عن حالهم: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ:٢٠-٢١]، وظنُّ إبليس الذي صدَّقه عليهم هو كما قال لربه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢-٨٣]، فكان هذا ظنُّ إبليس في الناس، فأخبر الله هنا أنَّ ظنَّ إبليس صَدَقَ على قوم سبأ.

العِبْرة:

١ - سنَّة الله عَزَّوَجَلَّ في النِّعم أنَّ من جحد نعمة الله تعالى ولم يشكرها، فإنَّ مصير هذه النِّعمة إلى الزوال، وهذا كما حَدَث لقوم سبأ فعندما جحدوا نعمة الله أزالها الله عنهم، ولذلك فقد ضرب الله لنا مثلا قرية أنعم الله عليها بأصناف النِّعم فعندما كفرت أزال الله عنها هذه النعمة قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

ومن شكر نعمة الله فإنَّ الله يزيده من النِّعم قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

والمتأمِّل لحال الأمم السابقة واللاحقة، فيرى أنَّ كلَّ قومٍ ذهبت عنهم النِّعمة فإنَّها لا تعود عليهم، وهذا يبيِّن أهمِّيَّة شكر النِّعمة، والشُّكر يكون بثلاثة أمور:

بالقلب، واللسان، والجوارح.

فأمَّا شكر النِّعمة بالقلب فيكون بالإقرار والاعتقاد أنَّ الله وحده هو المنعم على عباده، وأنَّه قادرٌ على إزالة النِّعمة كما وهبها.

وأمَّا شكر النِّعمة باللسان فيكون بكثرة اللهج بحمد الله وشكره عند حصول نعمة أو تجددها، وكذلك يسن حمد الله بعد الأكل وبعد الذهاب إلى الخلاء، وبعد إنجاز عمل معيَّن وهكذا.

وأمَّا شكر النِّعمة بالجوارح فيكون بتسخير هذه النِّعمة في طاعة الله تعالى ومرضاته والاستعانة بها على ذلك.

٢- لا يجوز للإنسان أنْ يدعو على نفسه ولا على ولده ولا على ماله قال ﷺ: «**لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء، فيستجيب لكم**» [رواه مسلم]، ولذلك لَمَّا دعا قوم سبأ على أنفسهم بأنْ يُباعد الله بين أسفارهم، استجاب الله دعاءهم على أنفسهم ففرَّقهم في الأرض قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:١٩].

٣- من صفات الذي يتَّعظ ويعتبر بآيات الله هي كما قال الله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:١٩]، فيكون صابرًا على البلاء، شاكرًا عند العطاء كما قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إِنَّ أَمْرَهُ كله له خَيْر، وليس ذلك لأحد إلاَّ للْمُؤْمِن: إِنْ أصابته سَرَّاءُ شكر فكان خَيْرًا له، وإِنْ أصابته ضراءُ صبر فكان خيْرًا له**» [رواه مسلم].

٤- كل من ينحرف عن الصراط المستقيم، فقد صَدَقَ عليه ظَنُّ إبليس عندما قال لربه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢-٨٣]، فيجب على الإنسان أنْ يحذر من وساوس إبليس وتزيينه للباطل لئلَّا يغويه معه ويصدق عليه ظنُّه.

n

قصة أصحاب الجنة

n

أصحاب الجنة هم إخوة ورثوا بستانًا من أبيهم، وكان أبوهم إذا حصد الثمر أعطى الفقراء والمساكين منه، وعندما مات هذا الرجل ورثه بنوه، وعندما حان وقت حصاده، أقسموا أن يصرموا ما في هذا البستان من ثمار في الصباح الباكر قبل أن يأتي الفقراء والمساكين، وهدفهم من ذلك هو البخل والشُّح والطمع؛ لكي يستولوا على ثمار هذا البستان، ولا يعطوا الفقراء والمساكين منه شيئًا قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم:١٧-١٨].

ولكن الله -سبحانه- لا تخفى عليه خافية، فعاقب هؤلاء الإخوة على نيَّتهم بمنع الفقراء بأنْ أحرمهم من هذه الثمار، فأرسل عليها عذابًا من السماء في الليل، فأتلف جميع الثمار ولم يبق منها شيئًا قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم:١٩-٢٠]، وعندما أصبحوا لم يعلموا بما حلَّ ببستانهم فنادى بعضهم بعضًا بصوت منخفض لئلَّا يسمعهم أحد، وانطلقوا بخفية لئلَّا يراهم أحد، وعزموا على نيَّتهم بألَّا يعطوا الفقراء والمساكين شيئًا من الثَّمر قال تعالى: ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم:٢١-٢٥].

وعندما وصلوا إلى بستانهم وجدوه تالفًا، وليس به ثمر، وكأنَّه قد صُرِمَ ما فيه من ثمار، فقالوا لبعضهم: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ [القلم:٢٦]. أي ضلَلْنا الطريق وهذا ليس بستاننا، وعندما تحققوا من الأمر وعلموا أنَّه بستانهم، عرفوا خطأهم الذي وقعوا فيه، وأنَّه قد أصابهم العذاب من رب العالمين فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [القلم:٢٧]. أي قد حُرِمنا زرعنا بنيَّاتنا، فقال أعدلهم وأوسطهم منهجًا وأفضلهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم:٢٨]. أي لولا أنَّكم سبَّحتم الله ونزَّهتموه ورجوتموه فقالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [القلم:٢٩]. فسبَّحوا ربَّهم وتابوا إليه واعترفوا بخطئهم وبظلمهم، فأخذوا يلومون بعضهم بعضًا قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ [القلم:٣٠-٣١]، ثم لجأوا إلى الله يدعونه بأنْ يبدلهم خيرًا ممَّا فقدوا فقالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ [القلم:٣٢].

فبيَّن الله أنَّ هـذا عذاب الدُّنيا لمن منع حـقَّ الله في المال الـذي أعطاه، وأنَّ عذاب الآخرة أشد فقال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٣٣].

العِبْرة:

١- إذا طَمِعَ الإنسان فيما ليس له حقٌّ فيه، فإنَّ هذا يكون سببًا لضياع ما يملكه، وهذا كما حصل لأصحاب الجنَّة عندما طمعوا أنْ يستولوا على حق الفقراء والمساكين الذي أوجبه الله تعالى حيث قال: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١]، فيجب إخراج زكاة الخارج من الأرض عند الحصاد،

فعندما طَمِعَ أصحاب الجنة في حق الفقراء والمساكين، عاقبهم الله بمنعهم من الثمر كلِّه.

٢- مهما استخفى الإنسان من الناس، فإنَّه لا يستطيع أن يستخفي من الله، فأصحاب الجنة عندما أرادوا صرم الزرع، ولا يعلم عنهم أحد فبيَّتوا النيَّة من الليل، وانطلقوا بخفية لئلَّا يراهم أحد، وتهامسوا لئلَّا يسمعه أحد فقال الله عنهم: ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ [القلم:٢١-٢٤]، فاجتهدوا في إخفاء الأمر بكل ما أمكنهم، ولكن لم يستطيعوا أنْ يخفوا هذا الأمر عن الله تعالى الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، ويعلم السِّرَّ وأخفى قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، فعاقبهم الله قبل أن يبدأوا بعمل ما عزموا عليه.

٣- أنَّ الزكاة حقٌّ واجبٌ لأهل الزكاة الثمانية الذين حدَّدهم الله في كتابه العزيز فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠]، ولا يجوز منعها فالمال مال الله، وهذا حقٌّ أوجبه الله، ولذلك فإنَّ من منع الزَّكاة فإنَّ الله توعَّده بالعذاب الأليم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ

فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة:٣٤-٣٥]، وقال ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها من نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار قيل: يا رسول الله فالإبل قال: ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها حلبها يوم وردها، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلا واحدا تطأه بأخفافها وتعضه فأفواهها، كلما مر عليه أولاها أعيد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، قيل يا رسول الله فالبقر والغنم؟ قال: ولا صاحب بقر وغنم لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة، بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئا، ليس فيها عفصاء ولا جلحاء ولا عضباء، تنطحه بقرونها وتطأه بأظلافها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» [رواه مسلم].

٤- وجوب التوبة من الذنب إذا وقع فيه الإنسان، والتوبة هي أن يعترف الإنسان بخطئه ويندم عليه، وهذا كما فعل أصحاب الجنة عندما اعترفوا بخطئهم وظلمهم وندموا على ما كان منهم قال تعالى عن حالهم:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ [القلم:٢٦-٣٢].

n

قصة أصحاب الأخدود

n

قال رسول الله ﷺ: «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إنِّي قد كَبِرت فابعث إليَّ غلاما أعلمه السحر. فبعث إليه غلاما يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مَرَّ بالرَّاهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الرَّاهب أحبُّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس. فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الرَّاهب فأخبره فقال له الرَّاهب: أيْ بُنَيْ: أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليَّ. وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عَمِيَ فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إنِّي لا أَشْفِي أحدًا إنَّما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك. فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: مَنْ رَدَّ عليك بصرك؟ قال: ربِّي. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربِّي وربُّك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الغلام، فَجِيء بالغلام فقال له

الملك: أَيْ بُنَيْ قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل؟ فقال: إنِّي لا أشفي أحدًا إنَّما يَشْفِي الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دَلَّ على الرَّاهب، فَجِيء بالرَّاهب فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى، فدعا بالمنشار فَوُضِع المنشار في مَفْرِقِ رأسه فَشَقَّهُ حتى وقع شِقَّاه، ثم جِيءَ بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى، فَوُضِعَ المنشار في مَفْرِقِ رأسه فشقَّهُ به حتى وقع شقاه، ثم جِيءَ بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه. فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قَرْقُور فتوسَّطُوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه. فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت. فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فقال للملك: إنَّك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خُذ سهما من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيدٍ واحد، وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام. ثم رماه، فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنَّا بربِّ الغُلام.. آمنا برب الغلام..

آمنا برب الغلام. فَأُتِيَ الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس. فأمر بالأخدود في أفواه السِّكَك فَخُدَّتْ وأُضْرِمَ النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فَأَقْحِمُوه فيها. أو قيل له: اِقْتَحِمْ. ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أُمَّاه اصبري فإنك على الحق» [رواه مسلم].

ولذلك توعَّد الله أصحاب الأخدود الذين حرَّقوا المؤمنين بالنار، وهم قعود على شفير الأخدود يتفرَّجون للمؤمنين وهم يتحرَّقون بالنار، فتوعَّدهم الله إنْ هم لم يتوبوا بأنْ يعذِّبهم بالنار كما فعلوا بعباده المؤمنين فقال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج:٤-١٠].

العِبْرة:

١- تحريم تعلُّم السحر وتعليمه وأنَّ تعلُّمَه كفر بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ

مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٠٢].

ولذلك عندما أراد الغلام معرفة الحق، بيَّن الله له ذلك عندما ظهرت الدَّابَّة العظيمة التي حبست الناس، فقال الغلام: «**اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الرَّاهب أحبُّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس. فرماها فقتلها ومضى الناس**» [رواه مسلم].

٢- الابتلاء سنَّة إلهيَّة ليعلم الله الصادق في إيمانه من الكاذب، قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٢-٣].

ولذلك قال الرَّاهب للغلام: «**أيْ بُنَيّ أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل عليّ**» [رواه مسلم]، وقد ابتلى الله الغلام والراهب والمؤمن من جلساء الملك -كما جاء في القصة-، فثبتوا على إيمانهم حتى قتلهم الملك.

٣- من رحمة الله بعباده المؤمنين أنَّه يثبِّتُهم على الحق في المواقف الصَّعبة قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

ولذلك ثبَّت الله تعالى المرأة المؤمنة التي تقاعست أنْ تقع في النار من أجل ابنها، فأنطقه الله ليثبِّت به فؤاد أُمِّه فقال لأُمِّه: «**يا أَمَّاه اصبري فإنك على الحق**» [رواه مسلم].

٤- مهما ارتكب الإنسان في حياته من المعاصي فإنَّ باب التوبة مفتوح مادام على قيد الحياة، ولذلك مع عِظَم الجرم الذي ارتكبه الملك من ادِّعاء الألوهيَّة، وصَرْف الناس عن الإيمان بالله وقتلهم وإلقائهم في النار بسبب إيمانهم، فإنَّ الله أعطاه الفرصة لكي يتوب ويرجع عن ذنبه فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج:٤-١٠].

n

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة.	٥
١- بداية الخلق.	١٦
٢- قصة خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.	٣٠
٣- قصة آدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عندما أكلا من الشجرة.	٣٦
٤- قصة ابنَيْ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.	٣٩
٥- قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.	٤٢
٦- قصة قوم عاد.	٤٩
٧- قصة قوم ثمود (أصحاب الحِجْر).	٥٥
٨- قصة محاجَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه وقومه لإثبات التوحيد.	٦١
٩- قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أبيه وقومه.	٦٥
١٠- قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.	٧١
١١- قصة قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ.	٧٦
١٢- قصة هاجر وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وبناء الكعبة.	٨٠
١٣- قصة الذبيح.	٨٨

١٤- قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع النمرود. ٩١
١٥- قصة رؤية إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ملكوت السماوات والأرض. ٩٤
١٦- قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ٩٧
١٧- قصة أيُّوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ١٣٣
١٨- قصة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ١٣٨
١٩- قصة مَدْيَن (أصحاب الأيكة). ١٤١
٢٠- قصة أصحاب القرية. ١٤٧
٢١- قصة مولد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ١٥١
٢٢- قصة محاولة فرعون وقومه قتل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وخروجه إلى مدين .. ١٥٤
٢٣- قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما أوحى الله إليه. ١٥٩
٢٤- قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون. ١٦٢
٢٥- قصة مؤمن آل فرعون. ١٦٨
٢٦- قصة غرق فرعون وقومه. ١٧٤
٢٧- قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع بني إسرائيل بعدما أنجاهم الله من فرعون.. ١٨٠
٢٨- قصة عبادة بني إسرائيل للعجل. ١٨٣
٢٩- قصة توبة بني إسرائيل من عبادة العجل. ١٨٧
٣٠- قصة بني إسرائيل مع البقرة. ١٨٩

٣١- قصة موسى والخضر عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ. ١٩٢
٣٢- قصة بني إسرائيل في أرض التِّيه حتى دخول الأرض المقدَّسة ووفاة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ١٩٧
٣٣- قصة طالوت وجالوت. ٢٠١
٣٤- قصة داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ٢٠٥
٣٥- قصة حكم داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بين الناس. ٢٠٨
٣٦- قصة موت داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ٢١٢
٣٧- قصة سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ٢١٥
٣٨- قصة سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع ملكة سبأ. ٢١٩
٣٩- قصة موت سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ٢٢٤
٤٠- قصة مولد مريم ابنة عمران عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ. ٢٢٧
٤١- قصة زكريا ويحيى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ. ٢٣٠
٤٢- قصة مولد عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ٢٣٥
٤٣- قصة دعوة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه. ٢٣٩
٤٤- قصة طلب الحواريين المائدة. ٢٤٢
٤٥- قصة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما رفعه الله إليه. ٢٤٤
٤٦- قصة الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه. ٢٤٧

٤٧- قصة أصحاب السبت. ٢٤٩
٤٨- قصة أصحاب الكهف. ٢٥٢
٤٩- قصة صاحب الجنتين. ٢٦٠
٥٠- قصة ذي القرنين. ٢٦٤
٥١- قصة قارون. ٢٦٨
٥٢- قصة سبأ. ٢٧٤
٥٣- قصة أصحاب الجنة. ٢٧٨
٥٤- قصة أصحاب الأخدود. ٢٨٣
الفهرس..... ٢٨٩

n